كتب ثقافية

نحن العرب

بقلم
أنور الجندي

نحن العرب

بقلم
أنور الجندي

[لاريب عندى أن الجنس العربى
سيلعب مرة أخـــرى دوراً خطيراً
فى تاريخ الشرق والحضارة]

المستشرق غويدى الايطالي

نحن العرب . .

الأمة العربية تعود مرة أخرى إلى مكان القيادة العالمية .

هذا هو الذى يجرى اليوم على كل لسان . لقد كان العرب يوماً فى مكان الصـــدارة ، ثم جاءت عوامل متعددة جعلتهم يتخلفون .

واليوم يكشف العرب هذه العوامل ويقضون عليها واحداً بعد آخر . وهم اليوم « الكلمة الأولى » على كل لسان ، فقد ظن الغرب بعد هذه الحرب الطويلة التى واجه بها « الأمة العربية » أنها لن تجد الطريق إلى مكانها الحق .

لقد ظل الاستعمار أكثر من مائة عام وهو يحاول تحطيم كيان هذه الأمة ويشوه ملامح شخصيتها ويدس لها من الدسائس مايؤثر فى كيانها ولغتها ووحدتها .

كانت هناك قوى ضخمة تعمل فى هذا السبيل ؛ وأجهزة مزودة بأسباب العلم ترسم خطة ضخمة متصلة فى هذا السبيل .

وقد واجه العرب هذه المعركة وصمدوا لها . وهم اليوم ومنذ سنوات قليلة قد تأجج فى أرضهم نور ونار ، فهم يبحثون اليوم أمرهم ويردون على الاتهامات ، ويفندون النظريات التى أثارها الاستعمار فى طريق الفكر والثقافة والحضارة محاولا أن يقضى علينا بالتخلف والعجز عن الوصول إلى مكان الصدارة .

وكانت هذه النظريات تتلخص فى :

(١) إنكار ثقافتنا وتراثنا وأثرنا فى الحضارة والفكر والفلسفة .

(٢) والتهوين من شأن بطولاتنا وأمجادنا .

(٣) ورسم صورة مشوهة لشخصيتنا العربية .

(٤) ومحاولة تحطيم لغتنا وإنكار مكانتها .

(٥) إثارة نزعات البربرية والفرعونية .

(٦) دعوات ثقافة البحر الأبيض وزعامة الأدب اليونانى .

(٧) الادعاء بأن علم العرب وفكره قائم على الأسلوب « الغيبي » وأنهم لم يعرفوا التجربة فى العلم ، وأن عقليتهم غيبية .

(٨) طبقوا علينا نظرية التفرقة الجنسية والتميز العنصرى .

فكان لابد أن نواجه اليوم هذه المغالطات جميعاً ، وأن نبين

فيها وجه الحق وأن نكشف عن الروح التي تسود ثورتنا العربية اليوم وهي روح « البناء على الأساس » والربط بين الماضي والحاضر على هدى وبصيرة وفتح النوافذ لجميع الثقافات على أن نأخذ منها ما يزيد شخصيتنا قوة واندفاعاً إلى الأمام في طريق الإنسانية غير متخلفين . وفي نفس الوقت غير ذائبين في شخصيات غيرنا . لنا صورتنا الواضحة وكياننا الكامل . فنحن لا نستورد النظريات ولا ننقل المذاهب ولا نندفع وراء بريق الدعوات ، وإنما نصدر عن واقعنا وكياننا المرتبط في حاضره بأمجاد ماضينا العريق وبطولاتنا وتراثنا ، وأننا نجعل من هذا المزيج قوة تزيد شخصيتنا حياة وخصباً ونمواً .

وسنعرض هنا صورتنا ومواقفنا وهي كلها تكشف عن أصالة طبيعتنا وقدرتنا على العمل والتحرك ، ففي خلال الفترة الطويلة التي حملنا فيها أمانة الحضارة عملنا ، وكان لنا دورنا وإيجابيتنا في ميادين الحضارة والثقافة والبحر والرحلة . وعندما عدا علينا الغرب قاومنا في معركة طويلة ممتدة حتى أشرق فجر الثورة العربية فعمت العرب تلك الانتفاضة الإيجابية التي أخذت تحدد موقفنا وتبرز كياننا وتبني شخصيتنا على أســـاس من التاريخ والأمجاد والتراث العريق . . .

إطار الصورة ..

• ما هي حقيقة الأمة العربية وملامح صورتها ؟

للعرب من صدق الحس وصواب الحدس وجودة النظر وصحة الرأى مالا يعرف لغيرهم . ولهم العزم الذى لا يشبهه عزم ، والصبر الذى لايشبهه صبر ، والجود والأنفة والحمية التى لايدانيهم أحد فيها . ولايتعلق بها رومى ولاهندى ولافارسى . وفيهم أيضاً خصلة لا تصاب إلا فيهم . وذلك إن سفلة كل جيل وغفلة كل صنف إذا اشتد تشاجرهم ، وطالت ملاحاتهم ، وكثر مزاجهم ، والدعابة بينهم . وجدتهم يخرجون إلى ذكر الحرمات وشتيمة الأمهات ، واللغط السيء والسفه الفاحش ولست بسامع من هذا حرفاً فى البادية لا فى صغيرهم ولا فى كبيرهم ولاجاهلهم ولاعالمهم .

وليس فى الأرض صبيان فى عقول الرجال غير صبيانهم ، وكل شيء تقوله العرب هو سهل عليها أو كصبيعة منها . وكل شيء تقوله العجم فهو تكلف واستكراه . . . »

هذا رأى الجاحظ فى العرب فما هو رأى مؤرخو الغرب ؟
يقول سيديو فى كتابه تاريخ العرب العام :

« يظهر أن قصـــد نسيان العرب وإنكار ما لهم من تأثير فى الحضارة الحديثة . فلقد حل الوقت الذى توجه فيه الأنظار إلى تاريخ هذه الأمة التى كانت مجهولة الأمر فى زاوية من آسيا ، فارتقت إلى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون .

واليوم ترى اسم العرب يمحى تحت اسم الشرقيين والمحمدين والمسلمين والمهاجرين والمغاربة والترك حتى اسم الهنود .

وهو إذا ماذكر فللإهانة والازدراء وما علمنا أن مغازى العرب وإقامتهم فى القرنين الثامن والحادى عشر بجنوب فرنسه أسفرت ولاريب عن آثار لا تزول فى لغتنا . وإن نفوذ العرب كان بادياً فى مختلف أدوار تاريخنا ، لا فرق فى ذلك بين زمن الغزوات الأولى وزمن الحروب الصليبية .

ومن المؤسف أن جهل أفضل علمائنا فى اللغة لهجات الشرق فظلت اللغة العربية التى حافظت على صفائها بفضل القرآن ، وهى أدعى اللغات إلى العجب حرفاً ناقصاً عندهم ، حتى أنهم لم يدر فى خلدهم أن الكلمات التى يقترضونها إيطالية أو أسبانية أو برتغالية

فلا تنم عن أصل لاتينى قد اقتبست من العربية .

وهم : الذين لا يستطيعون أن ينسوا أن البابا يوحنا الثامن كان يدفع لهم جزية سنوية ليتق إيطالية الجنوبية من غاراتهم[1] .

وقال العلامة دزى وزير معارف فرنسا « إن العرب أساتذة العالم وزارعوا بذور العلم والفنون والعالم اليوم من زرعهم يقتطف ولا ينكر ذلك إلا من لا يعرف اليمين من الشمال .

ويقول دريبان . أن تنغمات العرب وذوقهم السليم وشهامتهم وحميتهم وآداب جاهليتهم الاجتماعية ولطفهم سارت من غرناطة وقرطبة إلى بروفانس ولا نجودوك . وأخذ امراء فرنسا وألمانيا وانجلترا يقلدون العرب فى حب الفروسية وركوب الخيل واصبحوا يفخرون كافتخار العرب وكذلك نقلوا عنهم الصيد بالنبال وبالحراب بالطيور الجارحة مشاة وركوبا .

ويقول كوبى : إن العرب أثرت فى لغات جنوبى فرنسا ثم امتدت إلى إيطاليا .

ويقول ابن خلدون : إن العرب حكمت على غير مثال مثل

(١) تاريخ العرب العام طبع ١٨٧٧ .

لها ولا آثار أثرت . أصحاب إبل وغنم . وسكان شعر وادم . يجود أحدهم بقوته . ويتفضل بمجهوده ويشارك فى ميسوره ومعسوره . ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما يشاء فيحسن ويقبح ما يشاء فيقبح . أدبتهم أنفسهم . ورفعتهم هممهم . واعلتهم قلوبهم والسنتهم حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر. فن وضع حقهم خسر . ومن أنكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان أكتب للجنان (١) .

ويقول سيديو : نحن مدينون للعرب فى الحقل العلمى .

ويقول بيرترام توماس : لقد كان أثر العرب بعيداً فى مدنية القرون الوسطى . حتى أن كلمة العرب أصبحت شائعة التداول فيما يتعلق بالقضايا الثقافية وعلى الرغم من أن الحضارة العربية لم تنبعث من العرب كجنس أو بلاد . وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من علمائهم كانوا من دم فارسى فلولا العرب لم تبلغ الحضارة العالمية ما بلغته اليوم إن من الأمور التى تدهش العقل قابلية هؤلاء العلماء ـ علماء العرب ـ على التعبير والجمع .

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٧٢ .

ويقول لسان الدين الخطيب: العرب لم تفتخر قط بذهب يجمع ولا ذخر يرفع ولا قصر يبنى ولا غرس يجنى . إنما فخرها عدو يغلب وثناء يجلب وجزز تنحر وحديث يذكر . وجود على الفاقة وسماحة بحسب الطاقة هذه صورتنا كما رسمتها أقلام عربية وغربية ولكنها جميعها منصفة . نحن العرب لنا تاريخ ضخم ، كله أمجاد ، كل سطر فيه ملحمة من ملاحم البطولة والقوة والإيمان والخلق والكرامة والوفاء والعفو والسماحة .

هذه الأمة التي سحقت إمبراطورتين . واقامت حضارة جديدة كان المسلمون والمسيحيون فيها شركاء ، فى بناء هذا التراث المشترك من فكر وثقافة ولغة وتاريخ وبطولات ، والعرب ، هم أهل هذه الأرض عاشوا عليها منذ ألوف السنين واشتركوا جميعاً فى انتصاراتها وهزائمها ، وساهموا فى ثقافتها وحضارتها ، وكانوا معا يداً واحدة على كل خصم ودخيل وعدو .

قاومنا معا الفرنجة الذين جاءوا فى الحروب الصليبية ، وقاومنا التتار الذين قدموا من أقصى الشرق وقاومنا معا الاستعمار الحديث معا ولا نستطيع أن ننسى فى هذا المجال أن المسيحين كانوا فى مقدمة الدعاة للقومية العربية فى أوائل هذا القرن وكان لهم فى حماية اللغة العربيـــة دور ضخم يشهد به ما قام به البستانيون واليازجيون واليسوعيون وصروف وزيدان .

١ — الحضارة العربية

إذا أردنا أن نعرف عظمتنا فلنذهب فى رحلة من المحيط إلى الخليج . . لنرى ذلك المجد الباذخ والحضارة الرائعة والمدن العامرة .

١ — هذه (مراكش) : جوهرة الصحراء المغربية تلقانا هنالك ما زالت محتفظة بآثارها الجميلة . لقد بناها يوسف بن تاشفين عام ١٠٦٢ وأطلق عليها مراكش الحمراء ، وقد امتد نفوذه إلى جبال البيرينى ومن حولها سور شامخ بقلاعه وأبراجه ذاك الشكل الهندسى الرائع . مبنى بالطين والحجر الأحمر . وهى فى عظمتها تذكرنا بقصر الحمراء فى غرناطة . دفن بها لسان الدين الخطيب والقاضى بن العربى والملك المعتمد بن عباد صاحب اشبيليه .

٣ — ثم ها هى (طرابلس) الحانية على البحر الأبيض . تحكى مناراتها العالية القديمة قصة التاريخ وسورها العتيق يذكرنا بالأيام الذهبية عندما طردت جيوش العرب منها فلول الروم . .

فاذا تطلعنا إلى السراى ذات الأبراج العالية مر بالخاطر شريط طويل من الذكريات .

وقد سميت طرابلس الغرب تمييزا لها عن طرابلس الشام ومعناها الرومانى (المدن الثلاث) .

٣ ـ ثم هاهى الأسكندرية أعظم موانى البحر الأبيض . وقد بناها الاسكندر الاكبر وقد عاشت تاريخا ضخما من حيث شهدت ملك البطالسة والرومان والعرب وانبعثت منها أقطار أفلاطون وبها قامت مكتبة الإسكندرية .

عاشت الإسكندرية ستة قرون تحت نير الامبراطورية الرومانية بشطريها اللاتيني واليونانى حتى الفتح العربى . ووقفت فى وجه الوافدين الذين حاولوا الاستيلاء عليها . وقد عرف أهلها بأنهم أهل رباط ونجدة ينحدرون من صميم القبائل العربية ولهم فى البحر صولات أدخلت الرعب فى نفوس الروم والفرنجة .

٤ ـ وها هى القدس بمسجديها الاقصى ومسجد الصخرة ، ذى النوافذ المائة والسبعة والثلاثين من الزجاج الملون ؛ والثريا الضخمة والاحد عشر بابا ، بناهما عبد الله بن مروان عام ٧٤ هـ وحيث قبة مسجد الصخرة مصنوعة من الرصاص .

وتضم القدس مسجد الصخرة والمسجد الاقصى وكنيسة القيامة وطريق الآلام وقلعة القدس وتقوم على سبعة جبال وتلال : موريا والقطمون . والمشارف وجبل المكبر وجبل صهيون وجبل الزيتون .

٥ — وهذه دمشق بمسجد أمية حيث كان يعتكف الغزالى ، وبها ثمانمائة سبيل ونهر بردى وقنواته السبع واحياء الميدان والصالحية وأبو رمانه والمزه وجبل قاسيون وحى أبى رمانه وروح صلاح الدين بضريحه المصنوع من الرخام الابيض وساحة الشهداء الذين قتلهم أحمد جمال باشا السفاح فى ٦ مارس ١٩١٦ .

قال صاحب معجم البلدان أنها سميت دمشق لانهم دمشقوا فى بنائها أى أسرعوا والعرب تقول ناقة دمشق أى ناقة سريعة .

وهناك الغوطه والربوه ودمر والهامه . وفى تاريخ دمشق المدرسة العادلية والمدرسة الظاهرية حيث ضريح الملك الظاهر بيبرس ودار الحديث الاشرفية وجامع الحنابلة الذى قرأ به الذهبي وابن قدامه .

وفى الغوطه ضريح سعد بن عباده وفى الصالحين ضريح محى الدين ابن عربى وعبدالقادر الجزائرى .

٦ ـــ وهذه حلب الشهباء مدينة سيف الدولة والمتنبى ، . حلب التى امتدت الثغور بأبنائها ودفعت غزوات الروم عن الشام طويلا . وما تزال قلعة حلب الشهيرة تشهد بعظمة الأمة العربية وقد حددت أسوارها ومبانيها مراراً وأقام الملك الظاهر غازى ابن صلاح الدين للقلعة أسواراً عظيمة منيعة وأحيطت بخندق عظيم وما زالت حلب مشهورة ببساتينها الناضرة والصنوبر الذى عرفت به منذ القدم .

٧ ـــ وهذه تدمر: ماتزال بقاياها تكشف النقاب عن حضارة ضخمة وتماثيل رائعة دقيقة النحت . ومن أجمل آثارها الباقية هيكلها الكبير. الذى كان يتنصف المدينة وعلى كل جانب من جانبيه نحو ٢٧٥ عموداً يحمل كل منها تمثال رجل من رجالاتها المشهورين وحيث الأصباغ المختلفة الألوان على جدران المدافن وسقوفها .

وحمص تحمل قصة ملكين : أذينه وزينوبيا العربيين لمائتين وخمس وسبعين عاما قبل الميلاد .

وقد شقت تدمر العربية عصا الطاعة على الامبراطورية الرومانية وأنزلت جيوشها بقيادة أذينه ثم زينوبيا الهزائم بقوات الرومان والفرس ولقد ظلت المدينة العربية التى بنيت فى قلب الصحراء

معجزة من معجزات الحضارة العربية حتى بنى بجوارها الامير فخر الدين المعنى قصره ذى الجدران الضخمة والابراج والغرف والقاعات .

٨ — وهنالك بيروت على شاطىء البحر أخرجت الاوزاعى والوليد بن فريد الغورى وابن مكحول . وبها ساحة الشهداء الذين أعدمهم جمال السفاح فى ٦ مايو سنة ١٩٠٦ وسوق النورية وحى الزيتونة وبها أعلن فخر الدين المعنى استقلاله عن السلطة العثمانية .

٩ — وهنالك اللاذقية على ساحل البحر الابيض تحكى قصة طويلة حيث ذكرها المعرى والمتنبي فى شعرهما وقد دخلت اللاذقية فى حكم سيف الدولة أمير حلب فهى موقع حربى هام لوقوعها تجاه قبرص بحراً وهى المرفأ الذى يسار منه إلى انطاكية وإلى حلب براً . وقد حاول الروم اغتصابها من العرب أكثر من مرة .

وقد شهدت اللاذقية حملات الصليبيين حيث استولى عليها القرصان جوينمر عام ١٠٩٧ ثم استردها صلاح الدين ، ثم جرت محاولات الفرنجة للاستيلاء عليها فأجرى الملك الظاهر هدم قلعتها

حتى لايستفيد منها الفرنجة . ثم جاء بيبرس فاسترد ما كان باقيا من بلاد تلك المنطقة فى حوزة الفرنجة وكسر شوكة الاسماعيلية .

١٠ ــ فاذا اتجهنا إلى بغداد ذكرنا باب الخلد وقصر التاج ودار أبى حنيفة حيث مجلس الفقه وذكرنا دار الحكمة حيث المترجمين والنساخ ودكاكين الوراقين وحيث مجالس ابن حنبل والأشعرى والباقلانى والكندى وحيث النظامية والمستنصرية ودار السابور .

كان فى بغداد ستون ألف حمام يوم كانت أوربا تعيش فى ظلمات العصور الوسطى وكان حيال كل حمام خمسة مساجد. وكان فى دجلة ثلاثين ألف زورق قال الخطيب البغدادى : لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلال قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها . وسعة أطوارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها ومجالسها وأسواقها وسلكها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرزها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة .

ومما يروى أن أبا الوليد قال : قال لى شعبة : أرأيت بغداد ؟ قلت لا : قال : فكأنك لم تر الدنيا .

وكان المنصور قد أمر بعقد ثلاثة جسور أحدها للنساء ثم عقد لنفسه ولحشمه جسرين .

وعلى بعد تسعين كيلو من بغداد اطلال بابل التى ترتقى إلى عهد الملك نبوخذ نصر وخرائب اشور واطلال نينوى .

ويقع طان كسرى على بعد عشرين ميلا من بغداد طوله اثنان واربعين مترا وعرضه خمسة وعشرون مترا فى ارتفاع ينطق بعظمة العرب

وفى بغداد منارة جامع بغداد التى تعرف بمنارة سوق الغزل بناها المكتفى بالله عام ٢٩٠ هـ وقصر الخورنق والسدير الذى يبعد مائة وعشرة ميلا عن كربلاء .

١١ ـ فاذا قصدنا إلى (سر من رأى) أو سامراً وجدنا آثار مدينة ضخمة بناها المعتصم سنة ٢٢١ هـ بعد تشييد بغداد بنحو خمس وسبعين سنه على الضفة اليسرى لنهر دجلة وقد اتجه المعتصم إلى بناء هذه العاصمة إلى الابداع فى البناء وسائر الفنون الصناعية والزخرفية فاستقدم للمشاركة فى عمارتها أعظم الصناع وأصحاب المهن فى أنحاء الامبراطورية ليجعلها أكبر منافس لبغداد .

وقد أنشأ المعتصم قصوراً ومساجد واسواقا وبساتين تجل عن

الوصف وتشهد بالبراعة والابتكار . ومن أهم القصور «قصر الجوسق ، على الضفة الشرقيه لنهر دجله وقصر العروس المختـار والقصر الوحيد والبرج الغريب وقد سكنها المتوكل بعد المعتصم .

ومن آثارها المئذنة الملوية لارتفاعها من القاعدة نحو خمسين متراً . وايوان القبلة فى المسجد الجـامع الذى يتألف من خمسة وعشرين رواقا. كما أنشأ حديقة كبرى للحيوانات المتوحشة يتوسطها البركة الجعفرية التى وصفها البحترى فى قصيدته المشهورة . وإلى جوارها حلبتين كبيرتين للسباق والفروسيه

ولقد كان يتوسط سر من رأى شـارع عرضة مائه متر يظل مستقيما على طول سبع كيلومترات .

١٢-فاذا اتجهنا إلى البصرة رأينا تلك الفرضة التى كانت مركزاً لتجارة العرب البحرية والبرية . تصل منها إلى الصين شرقا وإلى المغرب وإلى الحبشة . فكانت ترسو بها عشرات الألوف من السفن. وهى ملتقى الرافدين : دجلة والفرات .

بناها سعد بن أبى وقاص قائد الجيوش العربية فى العراق فى أرض ذات حجارة غليظة . . عندما رأى أرضها عتبه بن غزوان المازنى قال هذه والله بصرة فسميت كذلك والبصرة هى الأرض

الغليظة بها الطين والزنج والحصى وقد انجبت البصرة : أبو الأسود الدؤلى والمهلب بن أبى صفرة والحسن البصرى ومحمد بن سيرين والفرزدق الشاعر والخليل بن أحمد والاخفش والاصمعى والجاحظ وأبو الهزيل العلاف وأبو الحسن الاسطرى والحريزى .

وهى اليوم أكبر بقاع العالم نخلا . بها نحو عشرة ملايين نخلة توصف بهامدينة البندقية العربية تقع على شط العرب حيث تخرج منه أنهار كثيرة تخترق المدينة

روى الأصمعى عن الرشيد أنه قال : نظرنا فاذا ماعلى وجه الأرض من ذهب وفضه لايبلغ ثمن نخل البصرة .

١٣ ـ فاذا بلغنا الكويت وجدنا حياة باهرة وتاريخاً عظيما . فالكويت كان طريق الموجات القادمة من اواسط الجزيرة العربية إلى العراق . وفيه استراحت قوات خالد لقيادته فى « كاظمة »

وأهل الكويت من رجال البحر المغامرين الذين عرفوا منذ القدم باسفارهم البحرية والمهارة فى الغوص . يرتادون البحار فى الشتاء لنقل تمور البصرة إلى جنوب الجزيرة والهند وافرقية الشرقية ويعودون بمراكبهم تحمل الأرز والبهارات والاقمشة والاخشاب لصنع السفن فى الهند والجندل لسقف بيوتهم من افريقية.

فاذا حل الصيف قضوه فى مغاصات اللولؤ . وقد بلغ أسطول اللولؤ الكويتى ٨٥٠ سفينة

وهناك القصر الاحمر بالجهراء ، وبه صمد الكويتيون لصد عدوان الأعداء .

٤ ـ فاذا بلغنا البحرين ذكرنا قصة الجزيرة التى تعاقب عليها الغزاة والمستعمرون فقهرتهم وتركت منهم مليون قبر . بها الينابيع التى تخرج الماء من أعماق البحر والابار التى تخرج الزيت من بطن الأرض .

مر بها الاسكندر الأكبر وما تزال فيها حتى اليوم آثار عدد من الصين أو الحجر . ومر بها . كسرى فى طريقه إلى اليمن ابان غزو الاحباش . ومر بها جنكيزخان ملك المغول ثم تيمورلنك .

وقد غزاها البرتغاليون ردحا من الزمن أقاموا خلالها القلاع والحصون وما من مؤرخ مربها إلا وكتب عنها : هيردوت قبل الفين وثلاثمائة سنة وماركو بولو وابن بطوطة .

واقتحمها الفرس بقيادة ملكهم نادر شاه ولكن العرب كسرتهم . وقد امضت مائه وسبعون عاما فى حرب شهدت خلالها

خمسة وعشرين حربا وقد عرف أهلها بالشجاعة فى ركوب البحر والتفوق فى فنون التجارة .

سميت البحرين لوجود ينابيع طبيعية حلوة تنفجر فى قاع المحيط فيبثق منها الماء العذب وسط ماء البحر الملح الاجاج. وعين عذارى هى اشهر عيون البحرين .

١٥ ـ فاذا بلغنا الخرطوم وجدنا مدينة عربية تقوم على الضفة اليسرى للنيل الأزرق الذى يتصل بالنيل الابيض على بعد ميل واحد من الجنوب .

حيث يورد السودان سبعة اثمان حاجة العالم من الصمغ العربى، ويجمع من غابات الطلح والشهاب بمديرتى كسلا وكردفان ماقيمته ٣ ملايين من الجنيهات وحيث القضارف هى سوق الحبوب والسمسم والصمغ .

وحيث الأبيض وواد مدنى وعطبرة وكردفان . ومديريات بحر (واو) والنيل الأزرق (واد مدنى) ودرافور (الفاشر) والمديرية الاستوائية (جوبا) وكسلا وكردفان (الأبيض) والمديرية الشمالية (الدامر) وملكال . .

وفى سنار يقوم خزان سنار المشيد من الجرانيت وبه ٨٠ بابا

ويصرف ٢٠ مليون من الامتار المكعبة ويبلغ عرض النيل الأزرق عند خزان سنار ٣٠٠ متر .

- ٢ -

تشهد حضارتنا بعظمة أمتنا : فى كل مكان قصة بطولة وصورة لقاء مع التاريخ وموقف نصر على العدو . هناك جبل قاسيون وحصن الأكراد وساحة السباع فى الحمراء وأبواب القاهرة وقبة الصخرة وجبل طارق والتيراء فى الأردن . هنالك الأنهار والمدارس والمساجد والسدود والمكتبات كلها تشهد بعظمة هذا التاريخ .

١ ـــ هذا جبل طارق : كان يدعى قبل الفتح العربى جبل (اليبه) وهو اسم فينيق ويوم احتله طارق باثنى عشر ألفاً من رجاله العرب والبربر كان فى حوزة القوط . وقد دارت رحى الحرب بينه وبينهم على شاطىء البحر القريب من المكان القائمة فيه اليوم مدينة (شريش) وانتهت بهزيمة القوط بعد ثلاثة أيام .

وقد حصن طارق الصخرة ببناء القلاع والأبراج على الشاطىء الغربى وفى أعالى الجبال . منها البرج المربع الذى لايزال قائماً هناك .

وقد استمر حكم العرب فى جبل طارق سبعمائة وخمسين عاما . ثم انتزعه الاسبان سنة ١٣٠٩ وانتزعوه واخرجوا العرب منه عام سنة ١٤٦٢ ثم استولى عليه الانجليز سنة ١٧٨٣ .

٢ ــ وهذه مئذنة القصبة فى تونس ؛ ترسم تاريخ الأغالبة والفواطم والحفصيين وهى واحدة من المآذن السامقة . وبجوارها القباب البيض والخضر والصفراء وعلى بعـــد منها تبدو بحيرة تونس[1] ، وقد انعكست عليها أشعة الشمس وأرست فيها البواخر وطار فى جوها هذا الطائر الرائع (البشروش) ها هو خليج تونس يشق الأرض شقاً . وها هو ذا جبل الزلاج المترامى الأطراف يتوج هامته تلك القبة الخضراء القائمة فى ذروته كأنها قلعة حربية .

ها هى ذى سطوح الدور العربية بيضاء مشرقة . ها هى ذى سقوف الأسواق المقوسة تبدو كأنها مسابل من ماء منسابة .

هذه الهضاب المحدقة بتونس كأنها جيوش جرارة نصبت لحراسة الخضراء ، أعلامها أشجارها وعدتها صخورها » .

(١) حسن حسنى عبد الوهاب ـ الرسالة (١٩ مارس ١٩٤٥)

٣ ـ وهذه قبة الصخرة بناها عبد الملك بن مروان وهي أثر عظيم في فن العمارة بهرت كل من رآها . وقال المؤرخون أنها لاتقل عن عظمة (تاج محل) حيث الدقة وجمال التناسب الذي لانظير له .

وهي بنـــاء مثمن الأركان في وسطها دائرة من الأعمدة والأساطين وتحمل قبة مرفوعة على قاعدة .

وهذه البتراء في الأردن . مازال كثير من أعمدتها الضخمة وأقسامها الأخرى حياً متألقاً يضرب لونه إلى اللون الوردي الزاهي ويصطبغ بطائفة من ألوان قوس قزح حينما تنعكس عليه أشعة الشمس في الصباح والأصيل . ولها ممر ضيق طويل يسمى (السيق) ينفذ من بين هضبات صخرية شاهقه . وقد وهبها هذا الطريق مناعة ضد الغزاة والبتراء منحوتة بكاملها في الصخر وفيها التقى المجهود الانساني بالطبيعة الجبارة الساحرة . هناك ترى الأضرحة والبيوت والمعابد والحمامات والمدرجات وطرق المياه المقطوعة من الصخر والتي يتجمع فيها الماء الصافي من ينابيع وادي موسى ويجري إلى قلب المدينة .

٤ ـ وهذه أبواب القاهرة التي بناها جوهر الصقلي قائد

المعز لدين الله الفاطمي . حيث بدأ الضلع الشمالى عند شارع بين السيارج بمنطقة باب الشعرية وامتد شرقا إلى باب الفتوح ثم إلى باب النصر .

وبنى جوهر فى سوره ثمانية أبواب ، أطلق اسم باب زويلة وباب الفتوح على بابين منهما وهما من أبواب القيروان . وفى بابا زويلة تقع قبيلة زويل المغربية وهى من بربر شمال افريقيا .

وفى الضلع الغربى من السور الموازى لخليج أمير المؤمنين كان باب سعادة وباب القنطرة . وسعادة هو أحد زملاء جوهر من قادة المعز . تم البناء عام ٩٦٩ وقد جدده بدر الجمالى فى ١٠٨٧ م .

ومد بهاء الدين قراقوش السور القديم من باب الشعرية إلى باب البحر وبنى قلعة المقسى ومكانها مسجد أولاد عنان بالقرب من باب الحديد . وكانت تطل على النيل حينذاك .

٥ ــ فاذا زرت حصن الأكراد ذكرت قصة بطولة ضخمة فقد بقى هذا الحصن مائة وثلاثين عاما رأس حربة يهدد بها الفرنجة أمتنا العربية ولطالما أدخل الرعب فى قلوب العرب . ولكن نور الدين محمود صاحب دمشق لم يلبث أن جمع جنوده عام ٥٥٨ ه

محاولا فتحه ولكنه رد عنه ثم جرت محاولات أخرى لاقتحامه حتى فتحه الظاهر بيبرس ٨٠٦ هـ وسحق الأعداء واتخذه قاعدة لجيوشه فى حروبه مع الفرنجة وبذلك تحول حصن الأكراد فأصبح رأس حربة ضد الفرنجة وأعداء العرب .

٦ ـ فإذا زرنا بقايا سد مارب العظيم فى اليمن على مسيرة خمسة أيام من صنعاء ذكرنا عظمة العرب قبل الاسلام بأكثر من ألف وخمسمائة سنة .

وكان(١) العرب قد اختاروا مكاناً على مقربة من مأرب عند جبال بلق تتدفق فيه سيول الأمطار التى تسقط على شرق اليمن لاقامة ذلك السد . فهناك متجه بين جبلين لايزيد إتساعها عن ١٨٠ مترا بنوا أمامها حائطاً ضخما فيه بوابتان كبيرتان وجدار سمكه ١٣ متراً وطوله ٨٠ متراً وارتفـــاعه ٩ أمتار وأقام فى مدخله بوابة للتحكم فى مرور مياه القناة . وفى الفتحة الثانية بوابتان تسير مياههما بين جدارين ضخمين فى البداية ثم تسير المياة فى قناة طولها ١٠٦٠ متراً تنتهى بحوض عظيم الاتساع فيه فتحات لاربعة عشر قناة تتفرع فى نواحى الوادى المختلفة .

---

(١) بين آثار العالم العربى ـ الدكتور احمد فخرى ـ ١٩٥٨

وقد تهدم السد وأعيد ترميمه وآخر ترميم قام به أبرهة الحبشي سنة ٥٤٢ م

وهناك بقايا قصر غمدان الذى بناه ملوك سبأ . وقد سجل الهمزانى صورة القصر وقال أنه كان كبير الشبه بقصر الحمراء فى الاندلس .

والعرب هم أول من بنوا السدود على وجه الأنهار والسيول . وقد بلغت السدود التى شيدت فى اليمن بالمئات . ذكر الهمزانى فى الأكليل أن من يحصب العلو من محاليف اليمن وحده ثمانين سداً وسد مأرب أو العرم الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم يضاهى أكبر السدود فى هذا الزمن وكان لكل سد اسم :

— ٣ —

فإذا ذكرنا البناء العربى لوجدنا فنا عظيما . وما تزال قصور بغداد والبصرة والقاهرة والقيروان والكوفة وسامرا والفسطاط والزهراء وما تزال القلاع والمساجد تشهد بجمال هندسته وروعة نقوشه وزخارفه . حتى قال بعض العلماء الاوربيين : لكأن أبنية العرب قماش من أقمشة الشرق يوشونه وينمنمونه ويزينونه بما يشاءون من تزاويق وتطاريز وتخاريم وتفاريج .

لقد كان الجامع الأموى مكسوة جدرانه بالفسيفساء الرائعة . وإن لم يبق منه إلا قليل بعد إحتراقه . وقد خلقوا هندسة خاصة بهم فى الاقواس المقنطرة والأعمدة الدقيقة والقباب والمقرصنات والعقود المتوالية والزخاف الهندسية وهناك مشهد الامام على فى النجف واجهته من الذهب الخالص وكذلك المنارتان الإماميتان والقبة الكبرى فى داخل القبة جوهرة كبيرة تتدلى بسلسلة من الذهب من أعلى القبة حتى قرب التابوت .

٢ — وقصر الزهراء يقوم على ألف ومائتى عمود من الرخام وبهو بجلس الخليفة وسقفه وجدرانه من الرخام والذهب له ثمانية أبواب مطعمة بالآبنوس والعاج والحجارة الكريمة .

ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ وجندها وأوقف على عمارتها عشرة آلاف رجل وجلب لها من روما والقسطنطينية وإفريقية أعمدة الرخام المختلف الألوان التى بلغت عدتها ٤ آلاف وثلاثمائة وستة عشر عاموداً .

أقام فى قصر المؤنس حوضا من الرخام جلبه من القسطنطينية وزينه بنقوش ذهبية بها صور آدمية . وجعل عليها تماثيل مختلفة من الذهب المرصع بالدر صنعت فى دار الصناعة بقرطبة وجعل

سقف قصر الخلافة وجدرانه من الرخام ذى الألوان الصافية وقراميده من الذهب والفضة وإنشأ فى وسطة صهريجاً عظيما مملوءاً بالزئبق وجعل للقصر فى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب. وقد انعقدت على حناياه من العاج والابنوس المرصع بالذهب. وقامت هذه الحنايا على أعمدة من الرخام الملون والبلور الصافى.

وقد نقل المنصور الصخر المنحوت لمدينته بمعدل ٦ آلاف صخرة فى اليوم وقدرت النفقة على بنائها ٣٠٠ آلف دينار كل عام خلال خمسة وعشرين عاماً.

٣ ــ وقصر الحمراء الذى شيده بنو الأحمر فى مدينة (غرناطة) وساحاته الفسيحة التى من أروعها ساحة البركه وساحة السباع وقاعاته الرائعة التى من أجملها قاعة الاختين وقاعة قارشى وقاعة بنى سراج.

اقيم على منحدر جبل شعير الذى يعد من أجمل إمكنة العالم والذى يشرف على مدينة غرناطة وحقول بيغة الواسعة الخصبة فإذا نظر المرء إلى الحمراء من غرناطه رآها ابراجا مربعة ذات ألوان قرمزية يناطح أعلاها السحاب ويحيط بأسفلها النبات الأخضر الكثيف وإذا مامر المرء تحت الاشجار التى تحف بها سمع تغريد

الطيور التى عليها وخرير الماء الذى يجرى فى السواقى والقنوات القريبة منها .

وفى بهو قصر الحمراء مائة عمود مرمرى رائعة فى تناسقها وعقودها ذات التخاريم المزخرفة . ولا يروع مثل منظر النافورة التى تحمل مائة واثنى عشر أسداً من المرمر الابيض يقذف كل أسد المياه من انبوب فى فمه يقول ادوارد اليأس فى كتابه (مشاهد الممالك) عن الحمراء : لم يكذب من قال إن الذى بنى هذا القصر جمع كل ما وصلت علوم البشر من أنواع الزخارف واضاف اليها فنون الجن وقصورهم الفخمة .

٤ — وفى قرطبة التى كان سكانها نحو ألف ألف كان هناك نحوا من مائتين وخمسين ألف بيت حين لم تكن مدينة فى أوربا تاوى إليها أكثر من ثلاثين ألفاً أو خمسين ألفاً على أكثر تقدير . وكان كل إنسان يستطيع أن يسافر فى الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المبانى .

وقد كان فى قرطبة وحدها مائة وسبعين جارية تعمل فى نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة . وكان فى قصر الخليفة أربعمائة ألف كتاب . وكان سادات أوربة يفاخرون بما يقتنونه من

منسوجاتها أو مصوغاتها المعدنية أو آنية الفخار التى لا يعرف لها نظير فى بلد آخر .

وهى أعظم مدن الأندلس من حيث الابنية الجميلة ودور الكتب وحدائقها البديعة وقد عرفت قرطبة بصناعة السروج ودباغة الجلود

قال صاحب نفح الطيب أن عرب قرطبة كانوا يتفاخرون بثلاث : باصالة البيت والجندية والعلم . وهى من أكثر مدن الأندلس كتباً وغناء بخزائن الكتب لكثرة علمائهم وكان للحكم الثانى فى قرطبة مكتبة بها ٦٠٠ ألف كتاب و ٤٤ فهرسا . تردها الكتب من بغداد ودمشق وخراسان والاستانة وبها ٨٠ مدرسة جامعة يرد لها الطلاب من جميع أنحاء العالم . درس بها البابا سلفستر الثانى قبل أن يصبح بابا (٩٩٩ م) وتخرج منها بطرس فزابل وقسيس كولونى وشانجه ملك ليون . وقد خرجت من العلماء أبو بكر بن يحى وابن الغرضى وأحمد بن عبد البر وخالد بن سعيد .

وتقع قرطبة على الشاطىء الغربى من نهر الوادى الكبير . بينها وبين البحر خمسة أيام ليس لها فى المغرب شبيه . بها ستمائة مسجد وخمسين مستقيا وتسعمائة حمام سوق وتسع عشر برجا . بنى بها

عبد الرحمن الداخل القصر الكبير . وشيد بها المنصور قصر الزهراء (٣٦٠ ﻫ) على نهر الوادى الكبير وليس أدل على عظمة قرطبة من شارعها الأكبر بطول عشرة أميال يضاء ليلا للمارة حيث كانت لندن مظلمة ليلا إلى تسعمائة عام وكانت قرطبة مرصوفة بالاحجار فى حين كانت باريس مبركا للاوحال والمياه التى تغوص فيها الأرجل إلى الركب فى فصل الشتاء.

٥ — وفى فزان تجد المدينة ذات الطابقين ؛ الطابق الأرضى للرجال والطابق العلوى للنساء . وللنساء اسواقهن ويمارسن أعمالهن فى طابقهن بعيداً عن أعين الرجال . وكانت الغزلان ترتع على بعد مئات الامتار من المدينة دون أن يضايقها أحد أو يعكر صفوها . . .

— ٤ —

بنى يوسف بن تاشفين الدار البيضاء . وبنى الكامل العادل ابن أيوب مدينة المنصورة واختط عبد الله المهدى مدينة المهدية . وأسس جوهر القائد مدينة القاهرة وبنى أحمد بن طولون مدينة القطائع ، وبنى إبراهيم بن الاغلب مدينة العباسة . وبنى المعتصم سر من رأى وشيد السمح بن مالك الخولانى مدينة قرطبة وبنى

عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء وابتنى المنصور بن عامر مدينة الزاهرة .

وشيد أبي يوسف بن تاشفين مناره إشبيليه . وبنى المنصور بغداد . وبنى المهدى الرصافة . وبنى الحجاج مدينة واسط وشيد سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة . وشيد عقبة بن نافع الفهرسى مدينة القيروان وشيد سعد بن أبي وقاص مدينة الكوفة فإذا ذهبنا نستقصي عمليات الدفاع وبناء الابراج وإنشاء القلاع فهناك قلعة حمص وابراجها الرومانية وقلعة حلب وقصة سيف الدولة وقلعة حلب تعد من أجمل وأعظم التحصينات العسكرية تنطق بمدى ما بلغه المسلمون من العمارة الحربية ومن تفوق ومهارة .

فإذا سالنا عن المساجد وجدنا مسجد قرطبة : ، وجامع الزيتونة . وجامع القيروان والجامع الاموى فى دمشق هذا المسجد الذى استمر بناؤه عشر سنوات بلغت نفقاته ٥ مليون و ٦٠٠ ألف دينار وعمل فى بنائه ١٢ ألف عامل من العرب .

قال الوليد لأهل دمشق : انكم تفخرون على الناس باربع ، بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم . فأحببت أن أزيدكم خامسة

وهى هذا المسجد . وقد رصع محرابه بالجواهر وصور فوقه بالفسيفساء .

قال ابن الفقيه الرحالة العربى فى وصفه : إن الإنسان لو بقى مائة سنة لرأى فيه كل يوم أعجوبة لم يرها من قبل ، أرضه مرمر مفروش كسا جدرانه إلى أوساطه رخاما مجزعا ونصبت الأعمدة من الرخام الموشى ، أبيض وأحمر وأخضر مرشوش واسود .

أما مسجد قرطبة فهو أروع أمثلة العمارة العربية فى العصر الأوسط لما احتوى عليه من ابتكارات عمارية وزخارف . بدأ تشييده سنة ١٦٩ هـ وزيدت مساحته إلى الضعفين . وللمسجد تسعة عشر رواقا وتسعة عشر بابا يتسع بيت الصلاة والبهو لما يقرب من أربعين ألفاً من المصلين ويمتد فى بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد وصفه أحد المؤرخين العرب بقوله « إنه قد قوس أحكم تقويس ووشم بمثل ريش الطواويس . حتى كأنه بالمجرة مقرطن وبقوس قزح ممنطق وعلى قبته قلل مهللة كأنها تيجان مرصع فيها ياقوت ومرجان .

٣ ـ ومسجد قرطبة : له مأذنة ضخمة عدت من عجائب الدنيا ـ له تسعة عشر بابا تحيط به عقود على شكل حذاء الفرس .

ونقشت عليها فى الحجر ببراعة فائقة زخارف مكونة من أزهار وأشكال هندسية .

والمسجد يحتوى على أحجة ، ١٢٩ عاموداً واحد عشر ديوانا وواحد وعشرين دهليزا وبه ٢٨٦ ثريا يتدلى منها ٧،٢٥ قنديلا من الزيت عدا الشمعدانات الكبيرة الضخمة المصنوعة من الفضة الخالصة وهى تستمد زيتها من خزانات مصنوعة من نوافيس مقلوبة ومعلقة هى الأخرى فى السقف المشيد المؤلف من ٣٧ ألف قطعة من العاج والأخشاب الثمينه كالأبنوس والأترج وعود الند والنصدل الأحمر والأصفر مثبتة كلها بمسامير من الذهب والفضة ومطعمة بالجواهر .

ويصرف عليها سنوياً ٢٤ ألف رطل من الزيت و ١٢٠ رطلا من العنبر والعود قال سيديو وكانت المدينة تصبح مضيئة وحاراتها مطيبة بما يبقى فيها من الزهور مع استعمال الألحان المطربة فى المتنزهات العامة .

٤ — أما القصور فكانت مجهزة بأنابيب معدنية لتوزيع المياه على الأجنحة وإن الماء كان يجرى دافئاً فى أثناء الشتاء وبارداً مثلوجا فى أيام الصيف . وإن جهازات التهوية الصناعية كانت

فى الأشياء التى اخترعها العرب فى فن البناء واستخدمت لأول مرة فى قصور الأندلس فقال المؤرخون أنه بينما كانت القصور العربية متاحف للفنون الرفيعة كانت منازل أمراء ألمانيا وفرنسا وانجلترا لا تفضل حظائر الماشية فى شىء فهى بلا مداخن أو نوافذ وكان المخرج الذى يسلم إلى فضاء الجو كوة فى أعلى السقف ينصرف منها الدخان .

— ٥ —

فإذا مضينا نرتاد الجامعات والمعاهد والمدارس وجدنا نموذجاً عالياً من تقدير الثقافة ورعاية العلم والاندفاع فى سبيل الترجمة والابداع وإضاءة شعلة العلم .

فهذه النظامية فى بغداد بناها الحسن بن على « نظام الملك » وزير ملكشاه السلجوقى وتخرج منها أبو إسحق الشيرازى كبير فقهاء الشافعية وأبو حامد الغزالى والمستنصرية : التى بلغ ما أوقف عليها من العقارات أكثر من سبعين ألف مثقال سنوياً وقد زارها ابن بطوطه وحضر التدريس فيها انشأها نظام الملك على شاطىء دجلة ٤٥٧ هـ وبنى حولها أسواقاً وقفها عليها .

وأسس المأمون مدرسة بغداد ٢١٧ هـ وسماها بيت الحكمة وعهد بها إلى يحى بن ماسوية وكان من المؤلفين فى السريانية والعربية وكانت مقالته فى الحميات العمدة فى دراسة تلك الأمراض زمناً طويلا وفيها ترجم حنين بن إسحق مقالات اقليدس ومؤلفات جالينوس وكتابات ابقراط وارخميدس .

٢ — وفى دمشق كانت هناك الجقمقية مدرسة صلاح الدين والمدرسة العادلية ومكتبات الظاهرية والمستنصرية وكان بها من الكتب الوفا . هذا سوى ما أحرق فى الأندلس وأغرق فى دجلة وقد عاشت جامعات الغرب على مانقلته من الأندلس من كتب ابن سينا وابن رشد والادريس والبيرونى دهراً طويلا .

وقد قامت مدرسة سالرنو الطبية فى جنوب إيطاليا على تراث الثقافة العربية التى سادت صقلية وجنوب إيطاليا زهاء قرنين وفى دول جامعة فى أوربا ـ وهى جامعة نابولى (١٢٢٤ م) كان يدرس فيها أرسطو بشروح ابن رشد . كما درس فيها الجبر العربى والحساب العربى ودخلت الأعداد العربية محل الإعداد الرومانية .

٣ ــ وهنا فى القاهرة : الأزهر ودار الحكمة لها تاريخهما المعروف وكانت مدرسة السلطان حسن لا نظير لها فى الدنيا ـ كما قال المؤرخ الظاهرى . . فقد حكى الملك الناصر حسن لما أمر بعمارتها طلب مهندسين من أقطار الارض وأمرهم بعمارة مدرسة لم يعمر أعظم منها فعمرت وهى عجيبة من عجائب الدنيا » .

٤ ــ بنى عبد الرحمن الثالث فى عاصمة الاندلس ٢٧ مدرسة مجانية . وظلت النظام فى بغداد والزيتونة فى المغرب والأزهر فى القاهرة مع جامعة قرطبة تمد العالم بالضياء .

وكانت إيرادات عبد الرحمن الثالث ١٢ مليون دينار ذهبى قال (ول ديورانت) إنها كانت تفوق إيرادات حكومات البلاد اللاتينية مجتمعة .

وكان عمال الحكم الخليفة الأندلسى يتفقدون المكاتب فى دمشق والاسكندرية وبغداد يبتاعون المخطوطات وينسخونها وجلبوا منها إلى الأندلس ٤٠٠ ألف مجلد .

وقال دوزى إن كل فرد من أفراد الأندلس كان يحسن الكتابة والقراءة وفى جامعة قرطبة كانوا يدرسون الفقه والرياضيات والكيمياء والطب والعلوم الشرعية والفلسفية والفلك وبلغ عدد

من امها الآلاف وكانت أجازتها من أهم المؤهلات لشغل أعظم المناصب .

وكانت صناعة الورق من أهم ، ما اسداه العرب لاوربا .

وقد أقام المهندسون العرب على نهر الوادى الكبير الهادئ الجريان جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خمسون شبراً

يقول (اج كريستى) سرعان ما أصبح العرب أعظم البنائين كانت عبقريتهم قد انبثت أراء هندسية ذات مفاهيم عميقة فنية . وكان النحاتون على الجدران والحفارون فى الخشب فى غاية المهارة ومن أبرز مظاهر الزخرف استعمال الخطوط العربية كآية من القرآن أو بيت من الشعر كثيراً ما تجدها تحيط حافة أو افريزا أو تملأ شكلا هندسياً أنيقاً » .

٥ ـ كان العرب أول من استحدث حدائق الحيوان وكانوا يسمونها (حير الوحش) وقد حولوا وديان أسبانيا المجدبة إلى حدائق زاهرة ونقلوا إليها مختلف الغراس من المشرق . وأنشأوا بها القناطر العظيمة .

وللعرب فضلهم فى تحسين نسل الخيل وما تزال فى جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها .

٦ — وفى ميدان الدبلوماسية أرسل العرب أول سفارة لبلاد الروس حيث رأس الوفد أحمد بن فضلان الذى قصد إلى بلاد نهر (الفولجا) عند روسيا استجابة لدولة ملكها . واعاد بعد قرابة عام كامل من رحلته (٣٠٩ هـ - ٩٢١ م) وكان أصحاب الدعوة هم الصقالبة الذين يسكنون حول نهر الفولجا ويمتد ملكهم حتى يبلغ قرب قازان .

وقد سافر الوفد إلى فارس بالنهروان حتى وصل بخارى فخوارزم وعندما وصلوا بخارى وأرادوا عبور نهر جيحون تجمد النهر فانتظروه ثمانية شهور وقال ابن فضلان لقد نظرت إلى لحيتى وهى قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها من النار ..

٧ — أما بعثة الرشيد إلى شارلمان فقد تمت بعد مكاتبات دارت بينهما وقد أكرم الرشيد وفادة ملك الفرنج وأوفد إليه سفراءه بهدية فخمة منها خيمة عربية وساعة مائية وأثواب حريرية وتحف من الذهب وبسط من طبرستان وعطور من اليمن والحجاز وقردة وفيل ومسك وأعواد من الهند وشطرنج بديع الحسن من العاج المنقوش ومفاتيح قبر المسيح .

حيثما تسير تجد التاريخ العربى يرسم علامته بجوار الآثار الرومانية والفرعونية والبابلية والفينيقية . وقد خرج العرب من الأندلس ولكن آثارهم لا تزال هناك قائمة شاهدة على عظمتهم .

يقول أحد المؤرخين المعاصرين : لقد عثرت فى كتاب قديم عن تاريخ مصر يصف فيها مؤرخ غربى سوق القاهرة : يقول وجدت فى السوق زجاج فينسيا وزخرف فرنسا وجلود بلغاريا .

وإذا كان العرب قد وصلوا إلى اثيوبيا وإلى جنوب إفريقيا وإلى الأندلس فى المغرب فمن المعقول أنهم عبروا البحر الأبيض ووصلوا إلى بلغاريا . ومن هذا نظن أن القرون الوسطى لم تكن مظلمة ـــ على الأقل بالنسبة للعرب ـــ وإن ماشاع عن القرون الوسطى فيه ظلم كثير .

نحن نقول إن العرب كانوا مصدراً هاماً فى نهضة أوربا . لقد نقلوا إليها كل التراث اليونانى القديم .

فإذا ذهبنا نستقصى تلك الحقائق الدقيقة وجدنا إنه كان فى بغداد عام ٩٣١ م ٨٦٠ طبيباً مرخصـــاً . وأن جبريل

بن بختيوشع طبيب هارون الرشيد والمأمون والبرامكة جمع ثروة تقدر بنحو ٨٨ مليون درهم .

وإن الطبيب يوحنا بن ماسويه (٧٧٧ — ٨٥٧) درس التشريح بتقطيع أجسام القردة . وأن حنين بن اسحق كتب أقدم دراسة عن طب العيون .

وإن الرازى كشف طرقاً جديدة فى العلاج كمراهم الزئبق واستخدام أمعاء الحيوان فى التقطيب وقد ظلت صورتا الرازى وابن سينا معلقتين فى مدرسة الطب بجامعة باريس إلى عهد قريب فابن سينا أعظم من كتب فى الطب .

والرازى أعظم الأطباء .

والبيرونى أعظم الجغرافيين .

وابن الهيثم أعظم علماء البصريات .

وجابر بن حيان أعظم الكيائيين . والفارابى إمام الفلسفة والخوارزمى أبو الرياضة . وحنين بن اسحق عميد علم الفلك .

وقصور العرب فى الحمراء والزهراء نموذج من الفن مستقل عن الفن القوطى والفارسى والرومانى واليونانى . وإن الانجليز

لم يتركوا فى الهند من آثار مثل ماترك العرب فى الأندلس بالرغم من أن أمدهم بالهند كان أطول .

وقد عرف العرب بطابع النخلة العربية بقامتها الهيفاء وفروعها التى تتلاقى فى عقود المربعات .

يقول جوستاف لوبون : بلغ خصب الفن الأندلسى غايته فى قصر الحمراء وهو على مافيه من غلو فى الزخرف تراه وليد الذوق الرفيع الذى لايتجلى مثله فى آثار دور منحط . مع أن جدران قصر الحمراء مصنوعة من مزيج من الكلس والرمل والصلصال والحصباء لا من الحجارة المنحوته ومع أن زخارفه من الجص المضروب فى القوالب فإنه قد قاوم تقلبات الجو خمسة قرون .

وكما تتحدث قصة النخل فى العراق يتحدث القطن فى مصر والتفاح فى لبنـــان وخمس مليون شجرة من الزيتون فى المغرب تصدر منها ٧ آلاف قنطار غرسها الملك الشاعر المعتمد ابن عباد فى أغمات .

أما العراق فينتـــج ٤٠ فى المائة من مجموع تمور العالم

(٨٧ مليون نخلة) تصدر سنوياً ٣٥٠ ألف طن سنوياً .

وفى الشام من العنب أكثر من خمسين نوعاً من التفاح فوق الثلاثين ولاتذكر لبنان إلا ويذكر معها (الأرز) الذى عرف منذ القديم بالسحر فى تكوينه وصلابته التى تتحدى السنين والتى مازالت قائمة أشجاره التى زرعت قبل المسيح إلى اليوم . وكذلك الصنوبر وفى بعلبك آثارها وأعمدتها وفيها أشجار المشمش والحور ومراكب أهل صور وصيدا وطرابلس (أم قرطاجنة) التى صنعوها من خشب الأرز وشقوا بها عباب بحر العرب .

وهناك قلعة السقيف فى صور وقلعة البحر فى صيدا . وهيكل عطارد وجوبتير فى بعلبك .

وهناك جبل الزيتون فى فلسطين حيث صعد المسيح . وجبل الأطلس الشامخ فى المغرب كله يربط الأقطار ويرسم صورة التاريخ الموحد والواقع المتحد .

وقد وجد المؤرخون بين جبال أطلس وجبال العرب فى اليمن تقاربا وشبها .

وجبل قاسيون الذى يعلو عن وجه البحر ١٢٠٠ متر وعن

المدينة ٥٠٠ متر وقد ارتفعت منار حى المهاجرين والصالحية ثلثيه علوا .

وقرى لبنان الجميلة المنثورة على سفح الجبال . وفى منحنيات الأودية على علو الألفين من الأمتار حتى شاطئ البحر .

وهناك درته جوهرة البحر الأبيض والجبل الأخضر الذى يقع بين مدينتى بنى غازى من الغرب ودرنة من الشرق وطوله ثلاثمائة كيلو . يمتاز بالغابات الكثيفة فى سحر الصنوبر والأرز الخزوب والصفصاف . ووديانه العميقة ومنخفضاته وطرقه المعبدة حيث الفاكهة كالخوخ والتفاح . ومساقط الماء والينابيع فى شحات وراس الهلال وعين ماره .

وكانت هناك ١٥٠٠ سفينة تصيد اللؤلؤ فى البحرين وخليج العرب . وتجمع ٣٥ مليون روبية . ومنذ خمسة آلاف سنة كان ذلك الشاطىء العربى فى الخليج بين الكويت والبحرين ومسقط وعمان ينزل رجل عربى يجمع المحار من قاع البحر فى زنبيل معه ويغوص عشرة مرات فى اليوم ، ويظل على ذلك ستون يوماً وليلة لايرى خلالها الأرض .

٢ ــ الثقافة العربية

اعترف المؤرخون والعلماء والباحثون بفضل العرب على الثقافة العالمية ولم يقف ذلك عند نقل آثار اليونان وترجمتها بل انهم زادوا فيه وأضافوا اليه .

يقول الدكتور سرطان . أنه لولا نقل العرب كنوز الحكمة اليونانية والمحافظة عليها لتأخر سير المدنية بضعة قرون . لقد كانوا أعظم معلمين فى العلم . زادوا كثيراً على العلوم التى أخذوها أو جعلوها على درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء .

ويقول (دى فو) أن الميراث العلمى الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام عليه . أما العرب فقد أتقنوه وحفظوه وعملوا على تحسينه وأتمامه حتى أسلموه للعصور الحديثة .

ويقول سيديو : إن إنتاج أقطار العرب والمسلمين يشهد بأنهم أساتذة أوربا فى جميع فروع النهضة .

ويقول مسيو ليرى : لو أزيل العرب من التاريخ لتأخرت النهضة الأدبية فى أوربا بضعة قرون . وأنه فى أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا لا تزال تناقش فى جامعة منبلييه بفرنسا وان الأمة العربية علمت الغرب بعد أن أيقظته خمسة قرون أو ستة .

٢ — وفى الجغرافيا صحح العرب أخطاء بطليموس وأظهروا خطأ الرومان القائلين بتسطيح الأرض ورسموا الخرائط المحيطة ببلادهم . وقد أثبت أبو الفداء فى جغرافيته المسماة تقويم البلدان ان الأرض كروية وأنها فى الوسط . وعمل الادريسى كرة فضة للملك روجر الثانى ملك صقلية فى وزن ٤٠٠ رطل رومى رسم عليها صورة الأرض ووصف أشكالها .

وقد وصل العرب فى البحر إلى التركستان الروسية والصينية وبلاد المغول والصين وإلى شواطىء آسيا الشرقية . واكتشفوا جزائر الخالدات (كناريا) غرب شمالى افريقية ومخروا عباب المحيط الأطلنطى إلى مسافات بعيدة، وتجولوا بقوافلهم فى السودان والصحراء الكبرى حتى بلاد غانه .

وقال المؤرخ كوندى أن الاسطول العربى أبحر فى الجيل العاشر

من ميناء لشبونه مكتشفاً جزر اسورس وبعض جزر الأنتيل فكان أول من مزق الحجب عن المناطق المجهولة فى الاقيانوس وعنيت العرب بموقع المحور الكبير للبحر المتوسط بين طنجة وطرابلس والشام .

كما وصل بعض المغامرين العرب إلى سويسرة بعد أن اخترقوا جبال دوفينه وجبـــال سنبس (٨٩٠ — ٩٠٦) حتى بحيرة (كستانس) الواقعة بين سويسرة وألمانيا وقد كشف العرب النقاب عن بلاد كثيرة من الأرض لم يعرفها الاوربيون الا توهما وأن أول من اخترع رقاص الساعة هو أبو الحسن العباسى المشهور بابن يونس وقد أهدى هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا الساعات الدقاقة ، وكانت هناك فى مدرسة الطب ببغداد الساعة التى وضعها المنتصر العباسى وهى على صورة الفلك الدائر ولها بازان مصنوعان من الذهب .

٣ — وفى الموسيقى كان للعرب دور كبير فكان لنا فيها دراسات أوردها المسعودى فى مروج الذهب والاصفهانى فى الأغانى وغيرها

٤ — وأنشأ العرب المراصد العديدة . ووضعـــوا الأزياج الدقيقة الكبيرة الفائدة . وأول من أوجدوا علميا طول الدرجة

من خط نصف النهار . وقالوا باستدارة الارض ودورانها على محورها .

واخترعوا آلة الاسطرلاب الدقيقة وحققوا مواقع كثيرة من النجوم وحسبوا طول السنة الشمسية . وبحثوا فى كلف الشمس قبل الأوربيين ووضعوا جداول دقيقة فى النجوم الثوابت وصوروها فى خرائط .

وكان ابن الهيثم فى القرن السادس الهجرى (١٢ الميلادى) أول من اكتشف حقيقة انكسار أشعة الضوء وقال الجاحظ أن العرب علات ملوحة البحر وعذوبة المطـــر واحتراق الحطب واحتراق الزيت فى المصبـــاح وصعود الهواء وانحدار الماء لا بالجاذبية والثقل النوعى بل بانجذاب الاجسام بعضها إلى بعض .

٤ ـ وللعرب فى ميدان الطب مجال كبير : يقول (ولز) لقد ازدهر علم الطب والتداوى عند العرب على حين كان الاوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه وكان تداويهم بالرقى والتعاويذ وقد كان جراحو العرب يزاولون العمليات الجراحية الكبرى بطريقة علمية .

وأطباء العرب هم أول من وضع أساس الكيمياء . أو مارسوا أعمال التعصير والترشيح والتصعيد والتبلير ، البلورة ، والتذويب والالغـــام والتطليس وهم الذين استحضروا الكحول والقلى والبورق والزرنيخ والبوتاس والاثمد وزيت الزاج ، الحامض الكبريتيك ، والزاج الاخضر وماء الفضة ، الحامض النتريك ، وحجر جهنم ، نترات الفضة ، وملح البارود ، نترات البوتاس ، والسليمانى . والراسب الاحمر ، أكسيد الزئبق ، وروح النشادر وملح النشادر وملح الطرطير وماء الذهب والبارود .

وهم أول من فتتوا الحصى فى المثانة وسدوا الشرايين النازفة وكتبوا فى الجزام والحصبة والجدرى وعدوى الطاعون واستعملوا المرقد ، المخدر ، وكشفوا النقاب عن الدورة الدموية ودودة الانكلستوما . ولقد ظلت القلويات كلها معروفة باسمها العربى فى جامعات أوربا حتى اليوم ، وقد قيل أن أهم الخواص وهو ماء الفضة لم يوصف فى كتاب عربى قبل كتاب جابر بن حيان . وأن ملح البارود من تحضيرات تلاميذ العرب . وكان أطبـاء العرب يصنعون خيوط الجراح من أمعاء القطط حتى إذا خيطت به الجراح التأمت وهضم الخيط دون حاجة إلى نزعه .

ولم تعرف جامعة لوفان إلى القرن السابع عشر مرجعا للطب والعقاقير أوفى من كتب الرازى وابن سينا وابن الهيثم وأن أطباء العرب صححوا آراء أبقراط وجالينوس فى التشريح ووظائف الاعضاء .

٥ — وعرف العرب خاصة الجذب فى المغناطيس وخاصة اتجاهه . وعرف موسى بن شاكر مائة تركيب ميكانيكى . وعللوا صعود الماء فى العيون والفوارات وتجمع الماء فى الآبار والقنوات واستعملوا السيفون وسموه « السمارة » وعرفوا كثافة الذهب والرصاص .

وبحثوا فى الصوت وحصوله وعللوا حدوث الصدى وفى الاوتار واهتزازها وعرفوا ما بين طول الوتر وغلظه وتأثره من علاقة .

يقول جوتية ولقد علمنا العرب صنع البارود وعمل إبرة السفينة وعلينا أن نقدر دائما مدى الشوط الذى كانت تقطعه مدنيتنا لو لم تقم على مخلفات المدنية العربية . ولقد عرف العرب قبل غيرهم آلة الظل والمرايا المحرقة بالدوائر .

٦ — واقتبس العرب الارقام الهندسية وشذبوها ، وأوجدوا لها طريقة مبتكرة وهى الاحصاء العشرى باستعمال الصفر .

وألف الخوارزمى أول كتاب فى الجبر . واستعمل العرب الرموز فى الرياضة فسبقوا الاوربيين إلى ذلك ومهدوا للكشف عن اللوغارتمات وعن التكامل والتفاضل .

٧ — وفى مفردات ابن البيطار أسماء ١٤٠٠ عقار منها أربعمائة عقار لم يعرفها اليونانيون وقد حدد العرب منافعها ومضارها . ومن أجل علماء العرب فى النباتات والادوية المفردة ابن جلجل والغايق والادريسى وابن الصورى وابن البيطار

وقد نقل الغربيون إلى لغاتهم أكثر من خمسين إسما عربيا أو معربا كما أن أكثر من ثلاثمائة كتاب فى الطب نقلت من اللاتينية إلى العربية .

٩ - وأول مصنع للورق فى سمرقند سنة ٧٥١ وأول معمل فى بغداد فى زمن الرشيد . ثم دمشق ودمياط ومراكش وصقلية واسبانيا . كما صنعت المرايا والبلور فى سوريا ومنها انتقلت إلى البندقية .

كما نقل القطن إلى الاندلس وصقلية واخذوا من الصين زراعة قصب السكر واستخراج السكر منه وادخلوهما إلى مصر وصقلية والاندلس

١٠ ـ والعرب أول من نقل القمح الأسمر الذى هو الآن أهم محاصيل فرنسا وقد حمل العرب فسائل النخيل من اسبانيا وافريقيا إلى شاطىء الريفييرا ومن آثارهم فى صناعة استخراج القطران الذى يطلى به قاع السفن ويحميها من العطب . وعرف فضل العرب فى تحسين نسل الخيل فى اسبانيا ، حتى أن الخيول الاصيلة فى مقاطعه لاند وكاما راج فى جنوب فرنسا كانت من سلالة الخيول العربية التى أحضرها الفرسان المسلمون إلى تلك الانحاء

١١ ـ وقد ذكر فولتير وغيره من الكتاب والمؤرخين أن أول ساعة عرفت فى اوربا هى الساعة التى اهداها هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا سنة ٨٠٧ وكانت بدعا فى ذلك العصر حتى أنها أورثت رجال الديوان حيرة وذهولا .

كان لها اثنا عشر بابا بعدد الساعات فكلما مضت ساعة فتح باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات . وتبقى الابواب مفتوحه وحيئذ تخرج صور اثنى عشر فارسا على خيل تدور صفحة الساعة .

١٢ ـ وهناك الساعة المائية التى وصفها ابن جبير وكانت فى الجامع الاموى الكبير قال « عن يمين الخارج من جيرون جوار

البلاط الذى أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير بهطيقان صفر قد فتحت أبواب صغار على عدد ساعات النهار . ودبرت تدبيرا هندسياً فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فى بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منها . أحدهما تحت أول باب من تلك الابواب والثانى تحت آخرها والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيها تعودان داخل الجدار إلى الغرفة . وتبصر البازين يمدان عنقها بالبندقيتين إلى الطاستين . يقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب ، تتخيله الاوهام سحراً . وعند وقوع البندقتين فى الطاستين يسمع لها دوى. وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر . ولاتزال كذلك عند انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضى الساعات فتغلق الأبواب كلها ثم تعود إلى حالتها الاولى .

ولها بالليل تدبير آخر . ذلك أن القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنى عشر دائرة من النحاس مخرمة فى كل دائرة زجاجة وخلف الزجاج مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وافاض على الدائرة شعاعا فلاحت دائرة محمرة ثم تنتقل إلى الاخرى حتى تنقضى ساعات الليل

وقد وكل بها من يدير شأنها فيعيد فتح الأبواب ويسرح الصنج إلى وضعها وهي التي تسمى الميقيانية »

— ٢ —

فاذا (١) ذهبنا نستقصي أعلام الثقافة ورجال العلم وجدنا عبقريات واضحة دلالتها (جابر بن حناية) في الكيمياء قال عنه برتيلو أن ابتكاراته في الكيميا كانت المعين الذي استق منه الباحثون في ذلك العلم .

وهو أول من استحضر الحامض الكبريتيك بتقطيره من الشبه وسماه (زيت الزاج) واستحضر أيضاً حامض النتريك — وأول من كشف الصودا الكاوية — وأول من استحضر ماء الذهب وكانت زيجة أضبط ماوجد من نوعه عند العرب وله مكتشفات رياضية فلكية . ولقد لقب بطليموس العرب لثبات قدمه في علم الفلك وتضلعه فيه . و (الخوارزمي) في عصر المأمون — وهو أول من برز في الرياضيات والفلك وأول من وضع علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب . وقد وضع هـذا العلم في أواسط القرن

(١) تراث العرب العلمي : قدري حافظ طوقان

التاسع الميلادى وعنه أخذته أوروبا فى أواسط القرن الرابع عشر وقد ترجمت مقالته إلى اللاتينية واتخذت أساساً لتدريس الجبر فى عصر النهضة العلمية فى أوروبا .

و (الرازى) الذى ظهر فى منتصف القرن السابع للميلاد : اشتهر بالطب والطبيعة والكيمياء . كتابه الحاوى من أهم كتبه . ترجم إلى اللاتينية واعتمد عليه علماء أوربا . وبقى مرجعهم إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى وقد اشتغل بالكيمياء واستكشف ماسماه زيت الزاج وهو الحامض الكبريتيك والكحول .

و (ابن سينا) أعظم علماء الاسلام يلقبه كتاب الإفرنج بارسطو وأبقراط وقال الشهرستانى إن طريقة ابن سينا أدق عند الجماعة ونظره فى الحقائق أغوص . كتابه (القانون) من أكبر مؤلفاته الطبية وأنفسها قالوا : الطب كان ناقصاً وكمله ابن سينا وله كتاب الشفاء فى ١٨ مجلدا و (البيرونى) من ألمع علماء العرب قال عنه (سنحو) إنه أعظم عقلية عرفها التاريخ والغربيون مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها فى العلوم و (البتانى) معدود من العشرين فلكياً المشهورين فى العالم كله . أضاف بحوثاً مبتكرة

فى الفلك والجبر والمثلثات . ورصد الكواكب والأجرام السماوية
و (ابن الهيثم) قيل لولاه ماكان علم البصريات على ما هو الآن
أخذ عنه كيلر معلوماته عن الضوء ولاسيما فيما يتعلق بانكساره
فى الجو وقالوا : إنه أعظم عالم ظهر عند العرب فى علم الطبيعة .
وكتابه المناظر أوفى كتاب عن الضوء . وقد أقامه على الاستقرار
والقياس والاعتماد على المشاهدة والتجربة وفى دائرة المعارف
البريطانية أن ابن الهيثم قد أوحى بكتابه عن الضوء إلى اختراع
النظارات وأن علمــــاء القرون الوسطى أمثال روجر باكون
وبول واتيلو وليون دوفنشى قد اعتمدوا على كتاباته واقتبسوا
منها معظم بحوثهم فى مختلف الموضوعات .

و (ابن خلدون) يقول مكدونالد أن مقدمته هى أساس
فلسفة التاريخ وحجر الزاوية فيه . قالوا : إن أحداً لم ينسج على
منوالها قبلها حتى علماء اليونان والرومان . فقد استطاع العلامة
العربى أن ينفذ إلى الظواهر الاجتماعية عالما اقتصاديا وفيلسوفا
راسخاً .

وقال المؤرخون : إن الزهراوى أعظم طبيب فى الجراحة
العربية . وأمراض النساء والمسالك البولية وهو الذى تحدث عن

الأورام وقد استعمل مائة وخمسين آلة دقيقة فى العمليات الجراحية وهو أول من ربط الشرايين وأجرى عملية استخراج الحصاة عند النساء عن طريق المهبل وأن عباس بن فرناس حاول الطيران واخترع صناعة الزجاج من الحجارة وكتب فى الموسيقى .

و (الغزالى) فى نظر الباحثين فى دراسته للدولة أو المدنية يقارن بينها وبن جسم الانسان هو أسبق من الفيلسوف هربرت سبنسر الذى عمد إلى نفس هذه المقارنة . فالغزالى يشبه الملك بالقلب وأصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم والشرطة بعصب الانسان والوزراء بحسن الادراك والقضاة بالشعور .

— ٣ —

وقد عرف العرب قدر العلماء والمكتبات ولذلك فقد دارت أبحاث طويلة عن مكتبة الاسكندرية وهل أحرقها العرب ؟

وكان هولاكو التترى قد أغار على بغداد سنة ٦٥٦ وأمر بالقاء الكتب العربية التى فى خزائنها إلى نهر دجلة . كما أمر أن يبنى بجزء منها اسطبلات للخيل ومزاود للبقر بدلا من الآجر .

وكان الفرنجة عندما فتحوا طرابلس الشام فى الحروب

الصليبية قد أحرقوا دار كتبها بأمر قائدهم (الكونت برتران ده سانجيل) وكذلك فعل الأسبانيون بمكتبات الأندلس عندما انتزعوها من أيدى العرب .

كما أحرق الفرنسيون كل الكتب العربية المطبوعة والمخطوطة التى وجدوها بمكتبات قسنطينة عندما احتلوا الجزائر .

ولكن هل فعل العرب فعلهم ؟

قال أبو الفرج الملطى المؤرخ فيما يروى عن يوحنا النحوى : أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية بناء على أمر الخليفة وروى أن عمر بن الخطاب قال ، إن كان فى هذه الكتب مايوافق كتاب الله فنى كتاب الله عنه غنى . وإن كان مافيها يخالف كتاب الله فلا حاجة لنا به .

قيل فوزعها عمر على حمامات الاسكندرية وأحرقت فى مواقدها واستهلكت فى ستة شهور .

ولكن يوحنا النحوى الذى تسند اليه هذه الرواية مات قبل مجىء عمرو بن العاص إلى مصر . وأن حمامات الاسكندرية كانت حوالى أربعة آلاف حمام وليس معقولا أن هذه الكتب مهما كان عددها تشمل النار أكثر من ساعة .

وبشهادة بعض الرحالة الذين زاروا مصر فى أواخر العصر الرومانى أن هذه المكتبة لم تكن موجودة . فقد ذكر المؤرخ (زاريوس) الذى زار مصر فى أواخر القرن الخامس الميلادى أنه لم يكن لهذه المكتبة أثر .

وكان كذلك قبل وصول العرب . .

ويقول جوستاف لوبون فى كتابه حضارة العرب « أما حرق مكتبة الاسكندرية فمن الأعمال الهمجية التى تأباها سجايا العرب وطبائعهم . وإنا لنعجب كيف جازت هذه التهمة طويلا حتى على بعض العلماء الأعلام .

وقد دحضت فى زماننا بما لايترك مجالا للشك فى براءة العرب منها ، ومع أننى أرى من اللغو أن أحاول رد تلك الفرية عن العرب أذكر أن الأسانيد الصحيحة أجمعت على أن غيرهم هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندرية قبل الفتح العربى بحماسة كالتى اندفعوا بها لهدم معابد المصريين وتماثيلهم وأنهم لم يتركوا للعرب كتابا ليحرقوه .

وقد أسس مكتبة الاسكندرية أحـــد قواد الاسكندر (بطولو ماوس) مؤسس أسرة البطالسة التى حكمت مصر

فى سنة ٤٧ ق. م ويرى بعض المؤرخين أن الرومان كانوا قد غزوا مصر وثارت مدينة الاسكندرية على يوليوس قيصر. لحاصر الاسكندريون القصر الملكى فأمر قيصر باحراق القصر وباحراق الأسطول المصرى الذى كان راسيا فى الميناء أمامه وقد امتدت النيران من الأسطول ومن القصر إلى الجناح الذى كانت المكتبة تحتله فالتهمت الجزء الأكبر منها .

إن كتاب أبو الفرج الملطى اليهودى الذى أورد هذه الرواية قد كتبه بعد ستمائة سنة من فتح العرب باللغة السريانية . وقال إنه نقله عن ابن القفطى فى كتابه تراجم الحكماء .

وقد كذب ذلك الفرد باتلر فى كتابه فتح مصر كما كذبه جوستاف لوبون وقال لوكلير فى المجلة العلمية الفرنسية أن مكتبة الاسكندريه لم تبق إلى عهد الفتح الاسلامى لمصر حتى يقال أن العرب أحرقوها وكذبت هذه الرواية دائرتا المعارف البريطانية والفرنسية .

اللغة العربيه . . .

أحرزت اللغة العربية تقدير الباحثين الأجانب المنصفين : فالعلامة فريتاع الألمانى فى معجمه الكبير عن اللاتينية والعربية يقول :

« ليست لغة العرب أغنى لغات العالم فحسب . بل إن الذين نبغوا فى التأليف بها لا يكاد يأتى عليهم العد . وإن اختلافنا عنهم فى الزمان والسجايا والأخلاق ـ أقام بيننا نحن الغرباء عن العربية ـ وبين ما ألفوه فيها حجابا لا نتبين ماوراءه إلا بصعوبة .

ويقول ماكس فانتاجو فى كتابه المعجزة العربية : إن تأثير اللغة العربية فى شكل تفكيرنا كبير وقد لحظ ذلك الاجتماعى الكبير « شبنجلر » وسجل ملاحظاته فى كتابه « انهيار الغرب » .

.. لقد لعبت اللغة العربية دوراً أساسياً كوسيلة لنشر المعارف وآلة للتفكير خلال المرحلة التاريخية التى بدأت حين احتكر العرب على حساب اليونان والرومان طريق الهند ثم انتهت حين خسروها.

وبالرغم من فوارق الجنس والعصر والأزياء واللهجات فالظاهر أن العبقريات المختلفة كالخوارزمى وابن سينا وابن رشد وابن خلدون لمجرد كونهم مفكرين بالعربية تسمح لنا أن نسمى العصر الذى عاشوا فيه باسم القرون الوسطى العربية تماماً كما نسمى العصر السابق باسم التقدم اليونانى .

ويقول رينان فى كتابه تاريخ اللغات السامية : إن من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء فبدت فجأة على غاية الكمال سلسة أى سلاسة ، غنية أى غنى . كاملة بحيث لم يدخل عليها من ذلك العهد إلى يومنا هــــذا أدنى تعديل مهم . فليس لها طفولة ولا شيخوخه . إذ ظهرت لأول أمرها تامة مستكملة .

وإنه لم يمض على فتح الاندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الدين إلى أن يترجموا صلواتهم بالعربية .

٢ ــ ويقول المؤرخون إن أهل مصر تكلموا اللغة العربية نحو ثلاثة عشر قرناً ومن قبل كانت لهم لغة فى الشمال ولغة فى الجنوب كما عرفوا اللغة اليونانية . وإن مصر هى البلد الوحيد الذى انقرضت لغاته القديمة لتحل محلها اللغة العربية . وهذا خط

لم تظفر به أى أمة غير الأمة العربية وإن اللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية لم تعش فى بلادها ربع المدة التى عاشتها اللغة العربية فى بلادنا .

وقد عاشت اللغة العربية قرابة ألف وخمسمائة سنة وهى تؤدى مهمتها أداة للخطابة والكتابة والصحافة وإن هذا البقاء والنمو يكاد يكون معجزة فى عالم اللغات .

٣ — ويقول محب الدين الخطيب : لقد اتخذ بعض اللاتينيين ديدنا لهم إظهار اللغة العربية الفصحى بمظهر لغة ميتة وغير مفهومة عند ثلاثة أرباع المتكلمين بها . أما لغة الكلام فهى فى نظر هؤلاء اللاتينيين عبارة عن لهجات عامية لا ارتباط بينها ومصيرها الفناء بعد زمن قليل .

ولكن حسب الانسان أن يذهب إلى بلاد المشرق : إلى مصر وسوريا ليتجلى له بالبرهان القاطع إن اللغة العربية التى وئدت قبل أن يحين أجلها على عكس ما يذهبون إليه ؛ لغة حية بكل مافى الحياة من قوة .

٤ — وقد عنى العرب بنقل آثار العلم عناية واضحة وقد جعل

المأمون فى عقد الصلح بينه وبين ملوك الروم الشرقيين أن تعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التى كان بها من الذخائر الثمينة كتاب بطليموس فى الرياضيات ،

وقد نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب من أوربا .

وكان فى مكتبة دار الحكمة لهارون الرشيد مليون كتاب . وفى مكتبة نوح بن منصور سلطان بخارى فى رواية ابن سينا حمل اربعمائة جمل .

وفى مكتبة الحاكم بأمر الله فى دار الحكمة مليون و ٦٠٠ ألف مجلد .

وفى مكتبة طرابلس التى أحرقها الفرنجة مع مليون كتاب وقد كان لآل عمار فى هذه الخزانة مائة ألف ناسخ تجرى عليهم الارزاق سنوياً .

وفى الاندلس كان هناك ٧٠ مكتبة وكانت مكتبة عبد الرحمن الثالث فى غرناطه تحوى ٦٠٠ ألف مجلد .

ويذكر المؤرخون قصر المدة التى قضاها العرب فى ترجمة مؤلفات حكماء اليونان فهى لم تزد عن ١٥٠ سنة . بدأ عملية الترجمة

أبو جعفر المنصور وتوسع المأمون فى الترجمة وكان حذاق الترجمة من العرب أربعة : حنين بن أسحق العبادى ويعقوب بن أسحق الكندى وثابت بن مرة الحيرانى وعمر بن الفرحان الطبرى .

وفى الاسكوريال بأسبانيا اليوم ٦٠ ألف مجلد من الكتب العربية . خمسون ألف منها مطبوعة والباقى من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية .

وقد نقلت إليها مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش سنة ١٦١٤ وقوامها ثلاثة آلاف مجلد .

وقد شبت النار فى الاسكوريال فالتهمت كميات ضخمة من هذه الكتب فلم يبق بها إلا ألفى كتاب وذلك غير النار الذى أمر الكردينال خميس مطران طليطلة بجمع جميع الكتب والآثار العربية فى غرناطة عام ١٤٩٩ وقد نظمت اكداساً فى ساحات المدينة واحتفل بإحراقها ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب وهبت لجامعة (الكالا) .

٦ — وكما ترجمنا التراث اليونانى ترجموا فى أول عصر النهضة التراث العربى . وقد نقل اديلاردى بات المؤلفات التى حملها معه

من البلاد العربية إلى اللاتينية . وظهر بعده بعشرين سنة (ريمون راجات) أسقف طليطلة ومستشار ملك قشتالة فكان يجمع العلماء من اليهود والمسيحيين الذين يعرفون العربية طالباً إليهم نقل أكبر عدد من الكتب العربية إلى اللاتينية .

ومن خير من عمل فى هذا الميدان (جيرار الكريمونى) ويدين له الأوربيون بالفضل للتعرف على النصوص اللاتينية الأولى لكتاب المجسطى ومؤلفات ابن الهيثم والفارابى ومؤلفات جالينوس .

٧ — تبين من البحث إن اللغة العربية أقدم لغة حية وإن كثيراً من الكلمات الانجليزية واللاتينية واليونانية وغيرها تعود إلى أصل عربى. اثبت ذلك انطون الياس فى كتابه الذى ألفه باللغة الاسبانية ملتمساً فيه الالفاظ التى من أصل عربى .

٣ ـ البحر والرحلة

عندما أتيح للعرب اقتحام البحر ذل لهم وانقاد وكانوا من قبل يخافونه ويحذورنه . ولا غرو فقد كانوا أهل بادية وصحراء .

ولما اذن عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص فى فتح مصر قال له لا تجعل بينى وبينك بحراً فإذا عزمت على لقائك ركبت دابتى فبلغت مصراً دون أن يعصينى عنها ماء .

ولكن اسم البحر تردد بعد ذلك مرات والعرب يندفعون فى الافاق يفتحون الاقطار يستاذنون عمر فى خوضه واقتحام لجته وتردد عمر وخشى على العرب ثم أراد أن يستوثق من أمره فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى مصر يسأله عن البحر : كيف هو وأجاب عمرو . ولكنه كان اما محتاطا فى القول أو حريصا على ألا يسبقه إليه وآل آخر . . قال « إن البحر خلق كبير . يركبه خلق صغير . ليس إلا السماء والماء . إن ركد أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة . والشك كثرة . هم فيه

دود على عود . إن مال غرق . وإن نجا برق » .

وقال عمر : والله لا أحملن عليه أحداً .

ولكن معاوية يلح متطلعا إلى القسطنطينية . مغريا أياه بأساليب غاية فى البراعة حتى كتب له مرة يقول :

إن بعض قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلاب الروم . وصياح دجاجتهم يزقوا مع الريح إذا هبت من صوب الغرب من فوق أمواج ذلك البحر المخوف .

ولكن عمر أصر على موقفه .

ولكن الامر كان أكبر من أن يوقف . فإن عرفجة بن هرثمة الأزدى لم يلبث حين غزا عمان أن ركب البحر مع أصحابه .

فلما علم عمر عنفه واشتد عليه فى القول . .

ولكنه ما يلبث عمر أن يعبر إلى العالم الآخر ، ويجىء عثمان ويلح عليه معاوية حتى يأذن له الذى اشترط عليه إلا يجبر أحد على ركوبه أو يحمل عليه أحداً إلا برضاه واختياره .

وقد أقبل العرب على البحر فى الجولة الأولى بحماسة بالغة وتراحموا ، كل يريد أن يحرز قصب السبق ، وكان على رأس

الكتيبة الأولى عبد الله بن قيس . . الذى أتيح له من بعد أن يشهد خمسين غزوة بين شاتية وصائفة .

كانت الكتيبة الأولى فرحة باستقبال البحر لأول مرة ، حين شاهدت السماء الصافية وهى تنطبق على صفحة الماء عند نهاية الأفق غير أن الأمر كان أشد خطراً مما يتصورون عندما تحولت الريح وعصفت وتلاطمت الأمواج وازبدت وهاج البحر ، فرمى بموج كالجبال ، غير أنه ذلك لم يفت فى عضد الكتيبة الأولى .

وسرعان ما علا صوت قيس وهو يردد فى لحن جميل :

الغمرات ثم ينجلينا . .

فيردد أصحابه كلمته وتنجاب الغمرة ويصفو الجو وينجلى الأفق ويسكن الماء وتمضى السفينة على أثباج الماء رخاء .

ولكن الجو لم يلبث أن يعود إلى التلبد ، وتهب الرياح وتتقاذف السفينة أمواجاً كالجبال فيعود الفتية إلى نشيدهم .

وسرعان ما يتكشف لهم الساحل فيصلون إليه فرحين مهللين بأول جولة إستطاعوا أن ينتصروا فيها على ذلك الجبار المهول.

— ٢ —

اتسعت الفتوح وبدأ العرب فى انشاء السفن وحماية الشواطىء فلم يلبثوا بعد قليل أن تعمقت درايتهم وخبرتهم بالبحار وركوبها

والسفن وصناعتها وأنشأ معاوية الأسطول وقاده إلى جزيرة قبرص فأقلع من عكا والتقى بالأسطول المصرى العربى الذى كان لواؤه معقوداً على عبد الله بن سعد بن أبي السرح واحتل الاسطولان قبرص وصالحوا أهلها .

ثم غزا العرب جزيرة رودس فى عهد الوليد واستمر الغزو ففتحت أقريطش وصقليةوسرديفيه وجزائر البليارومالطة وكريد حتى أصبح العرب سادة البحر الابيض .

ثم ساق العرب سفنهم فى المحيطين الهندى والهادى . . . وظل العرب يقتحمون بحر مرمرة مرات ومرات ويحاصرون القسطنطينية بقيادة بسرين أرطأه مرة وبقيادة قيس مرات . ففتح صقلية القاضى أسد بن الفرات . وفتح اقريطش أبو عمر حفص بن عيسى فى أربعين سفينة وكان من ألمع الاسماء فى عالم البحر : ليون الطرابلسى الذى أطلق عليه فى كتب التاريخ المصرى «غلام زرافه» وسجلت غزواته لثغور بيزنطة وغزوات البحر الارخبيل وثغوره. كما فتح أنطاكية وولج المحيط الأطلسى وبلغ جزيرة مينو البعيدة . ودمر الاسطول الايطالى فى سردينيا ورد أسطول شارلمان عن برشلونة .

واتسعت دراية العرب بالبحار فطافوا أشهرها وبرعوا فى صناعة السفن وأدوات الغزو البحرى . وصنعوا الخرائط والمصورات ودرسوا علوم الجو وهبوب الرياح واستعملوا الابرة المغناطيسية والمنائر الهادية للسفن فى الليل .

وصنع العرب مختلف أنواع المراكب : كالسفينة والخلية والزورق والقارب ـ والشينى الذى كان يحمل ١٥٠ جنديا ويسيره مائة بجداف ـ كما صنعوا الطرادوالحراقة والسلذ ويعزى إلى العرب أنهم أول من اخترع البوصلة البحرية التى تحدد الاتجاهات . كما صنعوا الدبابة والكباس والغرارة ومكامن البارود .

وصنع العرب الأساطيل الحربية ، كانوا يطلقون عليها اسم (الشونة) حيث تقام فيها الأبراج والقلاع لحمل المنجنيقات التى يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء ويطلق عليها اسم (الحراقات) وكذلك (الطرادات) وهى سفن صغيرة سريعة الجرى واكتشفوا معدات الحرب كالزرد والخوذ والدرق (وهى اتراس من مجلد ليس فيها خشب) واستعملوا الرماح والكلاليب والسلاسل التى فى رءوسها رمانات من حديد ، وقوارير النفط يرمون بها الأعداء

وهى مشتعلة . كما استعملوا المسحوق الناعم الذى هو مزيج من الكلس والزرنيخ يقذفون به العدو فى مراكبه فيعمى غبارها المحاربين .

وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج : الخلود أواللبود المبللولة بالخل والماء والشب والنطرون والطين المخلوط كيما يخففوا أثر النفط المشتعل .

وأجاد العرب تركيب النار اليونانية فاستعملوها فى حملاتهم البحرية على شواطىء إيطاليا وبعض جزائر البحر الأبيض وهى تتركب من زيت النفط والكبريت والجير والقار فاذا مزجت نتج عنها سائل ملتهب يحدث دخانا وانفجاراً عظيمين كما يخرج منه نار تشعل الأجسام التى تلامسها أو تقع عليها .

كما استعمل العرب الآلات التى تقذف الحجارة والموادالملتهبة يصحبها دوى كالرعد .

— ٣ —

كانت أول حملة عربية لغزو جزيرة قبرص بقيادة عبد الله ابن قيس الحارثى ثم تتابعت الحملات .

فكانت معركة ذات الصوارى ، التى واجهت أسطول الروم المكون من ستمائة قطعة عندما اتجه لمهاجمة سواحل مصر،إذ خرج عبدالله بن أبى السرح فى أسطول ضخم ، وخرج معاوية من الشام بأسطول آخر فالتقيا فى الموقعة ودارت بينهما وبين أسطول الروم معركة بحرية رهيبة أسفرت عن هزيمة أسطول الروم وجرح مليكهم فلاذوا بالفرار .

وقد اتسع نطاق أسطول معاوية حتى بلغ ألفاوسبعمائة وحدة بحرية محاربة ، وعندما غزا جزيرة ردوس انطلق مسافة لا تقل عن خمسمائة ميل وعاد مظفراً . وعندما تجددت الحملات على القسطنطينية فى خلافة سليمان كانت هناك ألف وثمانمائة قطعة بحرية .

وبلغ الاسطول العربى فى أيام عبد الرحمن الناصر مايزيد على مائتى وحدة بحرية وكان أسطول المعز لدين الله وحده مكوناً من ستمائة قطعة . وقال ابن خلدون: أن عددالاساطيل العربيةفىأوربا وافريقيا فى القرن الخامس والسادس للهجرة وصلت إلى مائة أسطول ، وعندما غزا الاسطول الفاطمى السواحل الايطالية كان يحمل خمسة آلاف محارب لهم عشرة من القواد .

وفى الشام تحول البحر الأبيض إلى بحيرة عربية. ومن قرطبة انطلقت القوات المحاربة إلى قلب أوربا .

ومن سواحل الأندلس انطلقت الغزوات البحرية إلى جنوب فرنسا وغربى إيطاليا. واستطاع العرب من دمشق أن تصل جيوشهم إلى بحر الخزر فى قلب آسيا .

وقد عرفت سفن الاسطول العربى بالضخامة حيث كانت ذات طبقات عدة وبها عدد ضخم من المجاديف مما كان يسهل تحريكها إذا سكنت الريح .

وكانت أهم الأسلحة التى يستعملها الملاحون القسى والسهام والمجانيق والعرادات .

وقد بلغت فتوح العرب فى بحر الروم قوة واتساعاً حتى أصبح يطلق عليه بحر العرب وقد هيمنوا عليه ثلاثة أو أربعة قرون .

وكان العرب قد بدأوا معاركهم البحرية بمحاصرة القسطنطينية فطوقوها من البر والبحر بجموع كثيرة من الجند ولبثوا عدة أيام من الفجر إلى المساء يهاجمون واجهتها الشرقية حتى القرن الذهبى دون أن يتاح لهم الاقتراب من أسوارها المنيعة وأبراجها العالية .

فلما اقترب الشتاء فكوا الحصار ثم عاودوه فى صيف العام التالى واستمروا كذلك يعاودون حصار « القسطنطينية » فى كل شتاء ستة أو سبعه أعوام متوالية قبل أن يؤمنوا بفشل محاولاتهم. وقد فقد العرب فى هذه المعارك ٣٠ ألف مقاتل واستشهد عدد من الأعلام فنهم « أبو أيوب الأنصارى » الذى دفن تحت أسوار القسطنطينية .

أظهر البحر أعلاما وشخصيات غاية فى القوة والبراعة والبطولة: أبرز هؤلاء الأعلام « معاوية » الذى أبحر من ميناء عكا على رأس أسطوله بعد انتهاء شتاء عام ٢٨ هـ ونزل بساحل قبرص ، واشتركت المرأة العربية فى المعركة وكانت مع معاوية زوجته فاخته وكان مع عباده بن الصامت زوجته أم حرام بنت ملحان وقد ماتت شهيدة فى قبرص .

ومن الرعيل الأول من أبطال البحر نصر بن ارطاه وجناده ابن أمية وعبد الله بن قيس الحارثى . وعبد الله بن أبى السرح . وقد قضى عبدالله خمسين غزوة بين شاتيه فى « صبارة الشتاء » وبين صائفه فى حمارة القيظ . وقتل فى إحدى معارك البحر فكان أول شهدائه وأتاح البحر للعرب فرصة اكتشاف عدد من العبقريات

المدفونة فظهر منهم المعلمون المهرة ، والملاحون من أهل سيراف والبحرين أمثال أبى الحسن السيرافى وأبى الزهر البرختى والحسن ابن عمرو واسماعيل بن ابراهيم وعبهره الربان الكرمانى وعمران الأعرج وقد سافروا الأسفار الطويلة فى بحر فارس والهند والصين والقلزم

وظهر أعلام رسموا للبحر خططاً وكتبوا دراسات لا تزال مرجعاً فى علوم الملاحة من أمثال أحمد بن ماجد وسليمان المهرى وأبى معشر المنجم ومحمد بن شاذان وسهل بن أبان وليث بن كهلان وأحمد بن بترويه والمعلم خواشير بن يوسف

وفى البحرين كان العلاء بن الحضرمى من أبرز رجال البحر فى عهد عمر إذ كان عامله على البحرين وهو الذى أنشأ أسطولا وحمل فيه أهل البحرين دون أن يستأذن الخليفة ـ لأنه كان يعلم أن الخليفة لا يأذن ـ وعبر بهم الخليج إلى اصطخر . فنزل الجند بها وقاتلوا أهل فارس . وقد أخذ عليهم العدو الطريق من جهة البحر ودمر أسطولهم .

وفى هذا المجال يذكر الرجل العربى الذى رافق فاسكودى جاما (معلم كانا كا) فى ملندى من أعمال علكة كامبايا. وقد أعجب به دى جاما عندما اطلعه على مصور لجميع شواطىء الهند كما يعرفها مبينا بها خطوط الطول والعرض بما فيها الدرجات بصورة دقيقة.

فلما أخرج دى جاما للبحار العربى اصطرلابا خشبيا كبيراً وآخر معدنى لقياس ارتفاع الشمس ، لم يدهش معلم كانا كا وقال أن ربابنة العرب فى البحر الأحمر كانوا يستعملون آلات من معدن أشبه بأشكال مثلثة ومربعة لقياس ارتفاع الشمس . وخاصة النجم الذى يستهدون به غالبا فى الملاحة .

وقال أنه وبحارة كامبايا وجميع الهند يبحرون مستعينين ببعض النجوم الشمالية والجنوبية ، وبنجوم أخرى تظهر عادة فى منتصف الشمال من الشرق إلى الغرب ، وانهم لايقيسون إرتفاع النجوم بما يشبه الآلات التى مع دى جاما بل بآلات أخرى وأخرجها له مركبة من ثلاث خشبات تشبه الآلة التى كان المسلمون فى بلاد البرتغال يستعملونها .

وقد استطاع معلم كانا كا أن يقلع مع فاسكو دى جاما عن طريق الهند فى ٢٤ نيسان ١٤٩٨ ويعبر الخليج الكبير الذى يبلغ طوله ٦٠٠ فرسخ من شاطىء إلى آخر فى اثنين وعشرين يوما وفى أقل من شهر وصل فرسانه إلى كالكوتا .

والمعلم كانا كا تعلم الملاحة الفلكية على أستاذه أحمد بن ماجد (وكانا كا) معناها رياضى فلكى كاتب .

أما أحمد بن ماجد فهو علم من أبرز أعلام البحر اسمه (شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد السعدى) : عربى من مدينة جلفار فى مقاطعة عمان .

وقد تحدث سيدى على بن حسين الاميرال التركى الشهير فى مقدمة كتاب « المحيط » عن أعلام البحر العربى فى عام ١٥٥٤ أقمت خمسة أشهر فى مدينة البصرة حيث بدأت الرياح الموسمية ثم أقلعت إلى الهند . وقد دامت رحلتى هذه ثلاثة أشهر (من ٢ تموز إلى ٢٧ أيلول ١٥٥٤) وكنت خلال هذه الاشهر الثانية أثناء إقامتى ورحلتى لا أدع فرصة تمر دون أن أشغل نفسى فى الحديث بأمور الملاحة من ربابنة البحر العرب الذين عبروا هرموز وهندستان أمثال الليث بن كهلان ومحمد بن شاذان وسهل بن أبان وسليمان أحمد المهدى وأحمد بن ماجد » .

وقد سمى ابن ماجه الباحث عن الحقيقة بن البحارين ووصف بأنه أفضل ربابنة الشاطىء الهندى الغربى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر مقدرة ونزاهة وأشار إلى ما كتب فى مؤلفاته عن العلامات والاشارات الموجودة فى البحار والتى تستهدى بها الطيور

وهى جزيرة العرب وجـزيرة قمر ومدغشقر وسومطرة وجاوه والغور وسيلان وزنجبار والبحرين .

ومما قاله ابن ماجه أن القطب هو سلطان النجوم المشهورة وانه مسمار الفلك وقد جرى الاجماع على اطلاق لقب « أسد البحر الهائج » عليه والمعروف أنه أخذ الملاحة أباً عن جد وانحدر من أسرة اشتهرت بالشئون البحرية وقد صورت مؤلفاته طرق سير الفن فى البحر بمعرفة منازل القمر وهبوب الرياح ومعرفة القبلة وكيفية الاستدلال بمنازل القمر والبروج عن البلاد التى يقصدها المسافر .

وأورد فى مؤلفاته أسماء نجوم بنات نعش وسهيلا والناقة والحمارين والعيوق والعقرب والنسر والاكليل والسماكين .

ويعد ابن ماجه ثمرة كفاح الحضارة العربية طوال تسعة قرون فى ركوب البحر ، وكان لآثاره المكتوبة الفضل فى النجاح الذى حققته الملاحة البرتغالية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين .

ومن أعلام البحر هوليون الطرابلسى الذى أشرف على غارات بحر الأرخبيل وفتح انطاكية والقاضى أسد بن الفرات فاتح صقلية

وأبو عمر حفص بن عيسى فاتح أقريطش ، ويسر بن أرطأه قائد الأسطول إلى بحر مرمره .

ولا ينسى فى هـــذا المجال طارق بن زياد ، ولا ينسى حسان ابن النعمان الذى بنى داراً لصناعة السفن فى تونس .

وما أسسه الناصر من دور عديدة للصناعات حتى أصبح أسطوله مائتى سفينة ، وكذلك معامل اشبيلية وقرطاجنة التى كانت تخرج كل عام عشرات من السفن المحاربة .

وقد صنع الأمين فى بغداد خمس حراقات على نهر دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والفرس والحية .

— ٦ —

شاهد العرب البحر أول مرة عندما وقفوا على جسر دجله تجاه المدائن على الضفة الآخرى بعد أن فتحوا العراق ووصلوا إلى حدود فارس . . هنالك وقعوا فى الحيرة إذ لم يجدوا الجسر الذى يعبرون عليه ولم يجدوا السفائن التى تحملهم . غيران سعد بن أبى وقاص لم يدع الفرصه تفلت منه إذ انتدب كتيبة الموت التى رأسها القعقاع بن عمرو فى ستمائة من المجاهدين الأشداء الذين دفعوا أفراسهم

فاقتحموا النهر فى كتيبة عرفت من بعد بالكتيبة الخرساء أو كتيبة الأهوال فلما وصلوا إلى البر الآخر حموه من العدو هنالك اندفع المسلمون على خيولهم يعبرون البحر إلى الفرضة الأخرى وخرجت الخيول صاهلة تنفض أعرافها . .

ثم اتسع معنى البحر عنـــدهم اتساعا مهولا بعد الفتوحات الضخمة فكانت أساطيلهم تعبر بين صقلية وقبرص ورودس وجنوة والبندقية فى بحر الروم إلى كالكوتا وسرنديب من ثغور الهند إلى جاوه فى الأرخبيل الشرقى، بربره وملندى من شواطىء إفريقيا وبحر القلزم وسيراف وعمان على المحيط الهندى والخليج الفارسى .

وقد كانت جميعها محطات لقوافلهم .

وبين المغرب والاندلس كان هناك أسطول يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الفردوس المفقود ومصنوعاتها إلى افريقية وآسيا، وكانت السفائن القادمة تمر بموانى برشلونه والمريه وقرطاجنة وبلنسيه ومالقه وقادس وأشبيليه .

كما وضع العرب الخرائط والمصورات وأحصـــوا ثروات الارض ودرسوا الاقاليم وقدروا إبعادها .

يقول ابن جبير (لم تكن السفن ذات الدفتين موجودة فى غير (بحر العرب)" البحر الابيض . كانت السفينة تحمل بضعة آلاف من الرجال وعلى ظهرها حوانيت ومنازل ، تقطع البحر عرضا فى ٣٦ يوما من مبدئه من الغرب إلى آخره حيث انطاكية .

وكانت سفن البحر الاحمر تخاط بحبال الليف وهى من صنع أهل (عيذاب) وقال ابن جبير : أنه لاتستعمل فيها مسمار البتة . وإنما هى مخيطة بامراس من القنبار « الكتان » فاذا فرغوا من إنشاء المركب سقوها بالسمن أو بدهن الخروع .

وقال « المسعودى » إن مراكب البصرة كانت بيضاء مشحمة وكانت سفن العرب تصل فى هذا البحر إلى جزر مالابار وماوراء ذلك شرقا وإلى أسافل بحر الزنج « موزانبيق » غربا . وكان فى سفن هذا البحر كثير من الحمام يطلقونه فيعود إلى بلاده يحمل أخبار صاحب السفن .

ووصف المؤرخون مراكب المهدى الفاطمى « عبد الله » وكيف استطاعت أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوه .

وقال ابن خلدون : إن العرب قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن الأمم النصرانية

قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائرأيامهم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقه ومنورقه وسردانيةوصقلية وقوصرهومالطه واقريطش وقبرص وكانت مراسيهم فى أنطاكية وطرابلس وصور وعكه «عكا» ودمياط والأسكندرية وتونس والمهديه وغيداب وعدن وهرمز والماسة وسيراف» .

وعدد المؤرخون أنواع السفن فقالوا منها : العدولية والسفينة والخلية والفلك والقرقور والزورق والقارب والطراد والحراقه والعشارى والجلاسة والبارجة وتعد «الشواتى» أقدم أنواع السفن الحربية التى عرفها العرب فكانت أهم القطع لديهم فى حروبهم فى بحر الروم .

كما نازل العرب سفن البيزنطيين فى قرطاجنه ٦٩٨ ودمروهم .

وقد سمى الملاحون العرب الموج وضجيج البحر بالهول فنقلتها اللغات الاوربية وما تزال «الفلول والأفراس والشبال» تذكر فى اللغات الأوربية بأسمائها العربية .

كما اكتشف العرب الإبرة المغناطيسية التى انتقلت إلى أوربا فى القرن الثانى عشر .

عرف العرب المغامرة فى البحر . وقد سجل لهم التاريخ عديداً من المغامرات من أهمها مغامرة « الفتية المغررين » التى وصفها الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » حيث قال :

إن جماعة من مسلمى الأندلس من أهل الحامة على مقربة من أشبونة يعرفون بالمغرورين وهم ثمانية فتيان أخوة أو أبناء عم . أنشأوا لهم مركباً كبيراً وشحنوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ثم خرجوا إلى بحر الظلمات من ثغر أشبونة (لشبونة) عن مهب الريح الشرقية وساروا نحو الغرب فى إثنى عشر يوما . فخرجوا إلى جزيرة الغنم وفيها من الغنم مالا يأخذه عد ولا تحصيل وهى سارحة لاراعى لها ولا ناظر اليها فقصدوا الجزيرة فنزلوا فيها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة بن برى وأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة ولا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلودها وساروا من الجنوب إثنى عشر يوما إلى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها إلى عماره وحرث . فقصدوا اليها ليروا مافيها فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك فأخذوا

وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر . فنزلوا بها فرأوا فيها رجالا شقراً زعراً . شـــعورهم سبطه وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب . فاعتقلوا فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان . ثم سألهم عن حالهم وفيما جاءوا وأين بلدهم فأخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيرا وأخبرهم أنه ترجمان الملك فلما كان فى اليوم الثانى أحضروا بين يدى الملك فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بأنهم اقتحموا البحر ليروا مافيه من الأخبار والعجائب فيقفوا فى نهايته فلما علم الملك ذلك ضحك . وقال للترجمان أخبر القوم إن أبى أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر وأنهم جروا فى عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى .

ثم اعتقل القوم مدة حين حتى جرت الريح الغربية فوضعوا فى مركب وعصبت أعينهم وأطلق بهم المركب فى البحر حينا قدروه بثلاثة أيام بلياليها ثم أخرجوا إلى الشاطىء وكتفوا وتركوا هناك وفى الضحى سمعوا أصواتاً بشرية فاستغاثوا بالقادمين فحلوا وثاقهم وسألوهم عن خبرهم ــ وكانوا من البربر ــ وأعلموهم أن بينهم وبين الأندلس مسيرة شهرين وأن المكان الذى رسوا فيه يقع فى أقصى المغرب » .

ويقول المؤرخون إن المغررين خرجوا من أشبونة وساروا فى بحر الظلمات مع الريح أحد عشر يوما . ومثل هذه المدة تحملهم نحو ستمائة ميل أو أكثر فى عرض البحر — أعنى إلى مياه الأزور أو مايحاذيها ثم اتجهوا بعد ذلك نحو الجنوب وساروا مدى إثنى عشر يوما فى مسافة لاتقل عن المسافة السابقة .

وكانت مغامرة الشبان المغررين فى الثالث الهجرى المقابل للقرن التاسع الميلادى وقبل مغامرة كوستوفر كولمبس بنحو خمسة قرون .

وقد اندفع العرب فى مغامرة أخرى عندما سافر بعض ملاحيهم المغامرين إلى المكسيك وقد أبحروا اليها من بعض جزر بحر المانش مستعينين فى إبحارهم بتيار الخليج الذى لم يكتشف إلا فى أوائل القرن السادس عشر . .

— ٨ —

كتب رحالة العرب عدداً من اليوميات صوروا فيها البحر من خلال مراكبهم الصغيرة ورسموا صورة الهول الذى عاشوه وهم يعبرونه ، فقال الادريسى فى كتـــابه نزهة المشتاق فى اختبار الافاق :

« إن الأرض مدورة كتدوير الكرة والماء لاصق بها.وراكد عليها ركوداً طبيعياً لا يفارقها.والأرض والماء مستقران فى جوف الفلك كالمحة فى جوف البيضه ووضعهما وضع متوسط والنسيم محيط بهما من جميع جهاتهما وهو جاذب لهما إلى جهة الفلك أو دافع لهما » .

ولفت أبو الثناء الاصفهانى الأذهان إلى فكرة كشف الأرض الجديدة قبل كولمبس بنحو قرن ونصف وتناول القزوينى النفط فى كتابه عجائب المخلوقات وقال إنه يطفو على المـاء ومنه أسود ومنه أبيض وقد يحول الأسود بالقرع والانبيق فيصير أبيض ينفع فى أوجاع المفاصل والفالج وبياض العين والمـاء النازل منها .

ويعتبر ابن بطوطه أول من اكتشف المحيط الهادى فهو قد ركب البحر من جزيرة جاوه البحر أربعة وثلاثين يوما فوصل إلى البحر الكاهل أو الراكد وهو أول مكتشف لهذا المحيط (١٣٤٤ م — ٧٤٦ هـ) قبل أن يكتشفه (نوينر دى بالبوا) سنة ١٥١٣ م كما وصل ابن بطوطه إلى أعالى (نهر النيجر) وإلى تمبكتو وسكوتو قبل أن يصل إليها منجو بارك بنحو ثلاثة قرون .

وكان أبى الفداء وابن بطوطه يطلقان اسم الخنساء على فرصة

(خانجو) التى هى الآن هنج تشيوفو جنوب شنغهاى على مدخل مصب نهر (تسيان تنج) .

وقد وصفها ابن بطوطه فقال : إنها أكبر مدينة رآها على وجه الارض وعند وصوله إليها كان فى استبقاله قاضيها فخر الدين وشيخ الاسلام .

كما زار أبو الفداء مدينة (شنجو) الواقعة فى الشمال الشرق وقال انها تسمى مدينة (الزيتون) وهى شنغهاى . وهى أول ميناء رسا عليه ابن بطوطه وقال إن مرساها من أعظم مراسى الدنيا .

وقد عرف جغرافيو العرب الصين بينما كانت مجهولة تماماً عند جغرافى اليونان والرومان ولم يكن لديهم علم بشأنها — وتوغلوا فيها وزاروا سواحلها وعرفوا مدنها وانهارها .

وقد وصف ابن جبير البحر فقال عن رحلة رهيبة له فى البحر الابيض المتوسط (١٢١٧ م) وطرأ علينا فى مقابلة البر فى الليل هول عظيم ، عصم الله منه بريح أرسلها الله تعالى فى الحين من تلقاء البر فأخرجنا منه والحمد لله .

وقام علينا نوء هال له البحر فبقينا مترددين بسببه حول

« برسردانيه » ثم طلع علينا فى حال الوحشية وانغلاق الجهات بالنوء فلا تميز شرقاً من غرب . طلع علينا مركب للروم إلى أن حاذانا فسئل عن مقصده فأخبر أنه يريد جزيرة صقلية وأنه من قرطاجنه .

وقد كنا استقبلنا طريقه التى جاء منها من غير علم فأخذنا بعد ذلك فى اتباع أثره .

. . وفى ليلة الأربعاء عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب سهام فعظم الخطب واشتد الكرب وجاءنا الموج من كل مكان . أمثال الجبال السائرة فبقينا على ذلك الحال الليل كله واليأس قد بلغ منا مبلغه ، وارتجينا مع الصباح فرجه تخفف عنا بعض إمانزل بنا فجاء النهار بما هو أشد هولا وأعظم كربا وزاد البحر اهتياجاً وابدت الافاق اسودادا واستشرت المطر والريح عصوفا حتى لم يثبت معها شراع فلجأنا إلى استعمال الشرع الصغار . فأخذت الريح أحدها ومزقته . وكسرت الخشبة التى ترتبط الشرع فيها ، حينئذ تمكن اليأس من النفوس وارتفعت الأيدى بالدعاء وأقمنا على تلك الحال فلما جن الليل فترت

الحال بعض فتور وسرنا فلما أصبح الصبح نشر الله رحمته واقشعت السحب وطاب الهواء وأضاءت الشمس وأخذ فى السكون البحر.

.. ثم عصفت الريح فطار لها المركب بجناحى شراعه والبحر بها قد جن، واستشرى لجاجه وقذفت بالزبد أمواله فتحال غواربه المتموجه جبالا مثلجة. ومع ذلك استشعرت النفوس الانس وغاب رجاءها اليأس وقد كنا مدة الستة والعشرين يوماً المذكورة التى لم يظهر لنا فيها بر، نرجم الظنون ونغازل المنون حذراً من نفاذ الزاد والماء.

فمن قائل يقول لنا إننا قد ملنا إلى بحر المغرب وهو بحر افريقية وآخر يزعم لنا إننا قد ملنا الى بر الأرض الكبيرة : أرض قسطنطينية ومنهم من يقول إلى اللاذقية جهة الشام. وبينهم من يقول إلى دمياط بر الاسكندرية وفى ليلة الأحد انقلبت الريح غربية وكشف النوء من المغرب، وجاءت الريح عاصفة فأخذت بناحية الشمال وأصبحنا والهول يزداد والبحر قد هاج هائجه وماج مائجة فرمى بموج كالجبال.

وكان كالسور علواً فيرتفع له الموج ارتفاعا يرمى فى وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب. فلما جن الليل اشتد تلاطمه وسكت الاذان

غماغمه واستشرى عصوف الريح فحطم الشرع . ووقع اليأس من الدنيا وظننا انه قد أحيط بنا .

وفى يوم الاثنين بدت ريح طيبة . فاستبشرنا بها ثم انقلبت غربية وانشأت سحابة منها رعد قاصف . وزجتها ريح عاصف ، وتقدمها برق خاطف . فأرسلت حاصبا من البرد ، صبه علينا فى المركب شآبيب متداركة فارتاعت النفوس .

ومازالت تعصف حتى استسلمت النفوس لباريها وتركنا بين السفينة وبحريها وعباب الموج تتوالى صدماته وتطفر الألباب رجفاته ، فتبددت من نفوسنا كل أمنية وتأهبت للقاء المنية ، وقطعنا هذه الليلة البهماء فى مصادمة أهوال ومكابدة أوحال ، ثم أصبحنا يوم السبت ليوم عصيب ، أخذ من هول ليلته بأوفر نصيب . والأمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءت وقد اسلمنا للقضاء وتمسكنا بأسباب الرجاء ثم تداركنا صنع الله فى الماء فقرت الريح ولان متن البحر واصفر وجه الجو ، وأصبحنا يوم الأحد وقد تبدل من الخوف الأمان . وتطلعت الوجوه وكأنها انتشرت من الأكفان . وساعدت الريح بعض مساعدة فعدنا نطلب من البر أثراً بعد عين وترجم الظنون بين متى وأين . .

قال علي مبارك: إن العرب هم الذين كشفوا بحيرة فيكتوريا نيانزا وعندى مساحتها بالجهة وإن قائق والقـــيراط فى كتاب بخط اليد . وسبق العرب بذلك المكتشفان سبيك وغرانت اللذين اكتشفا بحيرة عن طريق زنجبار ١٨٦٢ وسمياها باسم الملكة الإنجليزية .

كما صور أبو الفضل العمرى فى رسالتين كتبهما وصف عملتين بحريتين كان قد جهزهما فى القرن الثالث عشر (محمد جاو) ملك عينه وكانت غايتهما اكتشاف الساحل الواقع غربى المحيط .

ويقول السائح الهراوى إنه لم يترك برآ ولا بحرآ ولا سهلا ولا جبلا من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه على حائطه .

وقـد صور الادريسى فى نزهة المشتاق رحلته إلى نهر النيل فيقول : من بحيرة كورى يخرج نهر غانه ونهر الحبشة فإذا خرج النيل منها يشق بلاد كورى ثم بلاد تنه فإذا بلغ دنقله عطف من غربيها إلى المغرب ثم انحدر إلى الإقليم الثانى فيكون على شطيه عمارة النوبه . وفيه هناك أجزاء متسعة عامرة بالمدن والقرى ثم

بشرق إلى الجنادل وإليها تنتهى مراكب النوبة إنحداراً ومراكب الصعيد إقلاعا .

وهناك أحجار مفرسة لا مرور للمراكب عليها إلا فى أبان زيادة النيل ثم يأخذ على الشمال فتكون على شرقيه مدينة أسوان والادريسى واحد من مجموعة من الرحالة العرب طاف بالأندلس وشمال إفريقيا وآسيا الصغرى وزار فرنسا وانجلترا وصقلية حيث صنف للملك رجار ملك صقلية كتابا فى وصف الكرة الأرضية وقيد أحاديث الرحالة والتجار والحجاج فى السفن التى كانت تمر بموانى صقلية ولم يسبقه أحد كتب عن أوربا بما كتب به من دقه .

وابن جبير رحالة عربى رحل من الاندلس شرق إلى إفريقية ومصر والشام والحجاز كما سافر مرة أخرى من غرناطه إلى المشرق وقطع البحر الأبيض مراراً وطاف بمعظم جزائره وثغوره وتحول فى البلاد مصر والشام والحجاز واستقر فى الاسكندرية وتوفى بها (١٢١٧ م) .

وابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجى رحالة ومستكشف قصد إلى مجاهل البر والبحر . ألف (تحفة النظام فى غرائب الامصار وعجائب الأسفار) جاب أقطار العالم واخترق

المغرب ومصر والشام وبلاد العرب وفارس وخراسان وتركستان والهند وسيلان والصين وجزر الهـــند الشرقية كما اخترق قلب إفريقيا إلى بلاد النيجر وأمضى فى صلاته ربع قرن .

والمسعودى : هو المؤرخ الجغرافى الذى طاف انحاء العالم الإسلامى شرقا حتى الصين والهند وجزائر الهند الشرقية وقد اخترق المحيط الهندى حتى شواطىء إفريقيـة الشرقية وجزيرة مدغشقر وله « كتاب مروج الذهب » .

وأبو الحسن السائح الهراوى : الذى خرج من الموصل يجوب انحاء العالم نحو عام ١١٧٣ وانفق زهاء ربع قرن فى رحلته وطاف أرجاء الشام وفلسطين ومصر وقبرص وغرب الاناضول وزار القسطنطينة واخترق البحر الأبيض وتجول فى جزائره حتى صقلية وأسره الفرنج والقراصان مراراً .

وهناك اليعقوبى : الذى سافر من السند إلى الأندلس . وابن حوقل الذى أمضى ثلاثين عاماً فى الطواف من بغداد إلى الأندلس ومؤلف « المالك والممالك » والبغدادى الذى طاف من بلاد العرب وبلاد الروم وألف كتاب (الأفادة والأعتبار) .

وهناك الرحالة المقدسى مؤلف أحسن التقاسيم الذى يصور

حياته خلال رحلته الطويلة فيقول :

قد تفقهت وتأدبت وتزهدت . وتعبدت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر . وافت فى المساجد واطلت مع الصوفية المرائس والخانقائين الثرائد ومع النواتى العصائد .

وسحت فى البرارى . وتهت فى الصحارى وملكت العبيد . وحملت على رأسى بالزنبيل . واشرفت مراراً على الغرق وقطع على قوافلنا الطريق وسجنت فى الحبوس . وأخذت على إنى جاسوس . ومشيت فى السمائم والثلوج .

وما تم لى جمعه إلا بعد جولاتى فى البلدان ودخولى اقاليم الإسلام ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ومجالستى القضاه ودرسى على الفقهاء وأختلافى إلى الأدباء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين وحضور مجالس القصاص والمذكرين .

ومع لزوم التجارة فى كل بلد والمعاشرة مع كل أحد والتفطن فى هذه الأسباب لفهم قولى . ومساحة الإقاليم بالفراسخ حتى الفيتها . ودورانى على التخوم حتى حررتها . وتنقلى إلى الاخباء حتى عرفتها .

مراجع : تاريخ الاسطول العربى : محمد ياسين الحموى . دمشق ١٩٤٥
نزهة المشتاق فى اختراق الافاق : الشريف الادريسى
الملاحه عند العرب : لقدرى حافظ طوقان

معارك المقاومة العربية

هل يستطيع الغرب أن ينكر أننا قاومنا منذ اليوم الاول لغزوه لبلادنا العربية . لقد كنا نقاتل بالسلاح فاذا لم نجد فبالاجساد .

وكانت معركة ضخمة متصلة

ولم تكن المعركة الاولى ولكنها كانت المعركة الثانية .

كانت الأولى مع التتار والصليبيين[1] أما اليوم فإنها معركتنا مع الاستعمار سافراً كاشفاً وجهه وقد زحف على أرضنا العربية

ومنذ عام ١٧٩٨ حتى اليوم ونحن فى معركة متصلة

منذ ذلك اليوم الذى زحف فيه « نابليون » إلى أرض العرب وفى رأسه حلم قوامه أنشاء امبرطورية ضخمة فى أرض العرب .

ومعه وعود لليهود وتسبقه خدعه كبيره هى إدعائه الاسلام

خرج نابليون فى اسطوله متجهاً إلى الشرق ، وخرج فى أثره نلسون فوصل الاسكندرية قبله . وتلقاه الشهيد محمد كريم الذى

---

(١) لكى يكتمل لك قصة المقاومة وعظمة الشخصية العربية اقرأ « الشخصية العربية لانور الجندى »

رفض أن يسمح له بالبقاء لحظة واحدة . بل رفض أن يقدم لهم حتى الماء . .

قال له نلسون : أنه إنما جاء ليحمى مصر من نابليون

فاكفهر وجه محمد كريم وقال له أمض أنت أما الفرنسيون فنحن متأهبون لمقاومتهم .

ووصل نابليون غازياً وقاومته مصر العربية شبرا بشر . كان فى كل خطوة يجد القوة الشعبية تحطم خطوطه وتوقف سيره

قدم محمد كريم كل ماله فى سبيل مقاومة نابليون وجيشه ، وتمزيق كل جبهة يحاولون اقامتها ؛ كان هو الذى استقبل الأسطول الفرنسى عند وصوله إلى الاسكندرية . بدأ منذ اللحظة الاولى يعمل مع الصيادين والعمال فوق حصون الاسكندرية ليرد الفرنجة عن حمى الوطن .

وظل محمد كريم ورجاله يتلقون نيران المدافع الموجهة الى صدورهم دون أن يتزحزحوا . ولكن انى للبنادق والسيوف والحراب القديمة البالية وشظايا الأحجار ان تقاوم اسلحة نابليون الحديثة التى استطاعت أن تدك القلاع والحصون .

ولم يستسلم محمد كريم ، ولم تستلم الشخصية العربية . كان هناك

فى الصحراء بعيداً عن العيون يعمل ، يغذى حركة المقاومة بكل ما يملك من قوة ، يمد المجاهدين ويدربهم ويقدمهم إلى صفوف المقاومة . المقاومة التى لم تنقطع يوما واحداً خلال ثلاث سنوات كاملة

وعندما حاول كليبر احتلال دمنهور سرعان مااختفت دواب الحمل ، وقرب الماء ، ولم يجد الفرنسيون رجلا واحداً يعاونهم أو يقدم لهم شيئاً .

•

أما عمر مكرم فقد صعد إلى القلعة فانزل منها بيرقا كبيراسمته العامة « البيرق النبوى » فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق ، وأمامه الألوف من العامة . ومضى يستنفر الشعب فى قوة لمقاومة نابليون ، فخرج الناس تاركين أعمالهم ، وبيوتهم .

وقد عمدوا إلى اقامة المتاريس ، ونصب المدافع ، وحفر الخنادق ، وتحصين المدينة ، وهو فى خلال المعارك ينتقل بين أبواب الحارات ومراكز التكتلات يشجع المحاصرين ويرفع من روحهم المعنوية .

و « محمد السادات » الذى رفض وسام نابليون وقذف به إلى

الأرض ، وسجنوه فى القلعة ، وتركوه ينام على الأرض متوسداً حجراً .. وصودرت أملاكه ونهب منزله ، ومضوا يعذبونه فى سجنه ، يضربونه كل صباح وكل مساء خمسة عشر جلدة ، كانوا يضربونه أمام زوجته إمعاناً فى الظلم فكان يلقى ذلك قوياً باسماً صابراً محتسباً .

و « حسن طوبار » الذى أجج الثورة على الفرنسيين فى البحر الصغير ، هذا الرجل الذى كان يملك أسطولا فى خمسمائة من قوارب الصيد فى بحيرة المنزلة فأزعج الفرنسيين طويلا حتى أنه رفض أن يرفع الراية البيضاء أمام أسطول نابليون .

وهو الذى رفض هدايا نابليون ، كان حريصاً على أن لايشغله شىء عن هذا الجهاد . . نقل نساءه وأمواله إلى خارج مصر ، ثم أخذ يطوف البلاد محرضاً على الثورة .

واندلعت الثورة فى القاهرة ضد الفرنسيين وصمد لها الشعب صموداً عجيباً وقدم ضحاياه بالالوف. الالوف التى فتكت بها القنابل الفرنسية ، ومع ذلك فهى لم تتوقف ، وفى إحدى الثورات زحفت الجموع صوب مخازن الفرنسيين على ساحل النيل فى امبابة فاشتبكوا فى معركة خاطفة انتهت بانتصار الثوار واستيلائهم على المخازن ومضى الأهالى يغزون الفرنسيين فى قلاعهم .

وصنع أبطال المقـــاومة القنابل من حديد المساجد وفعلوا ما لا يمكن تصديقه .

وفى الشرقية والدقهلية اندلعت الثورة على الفرنسيين ، وفى ميت غمر هاجم الأهالى المراكب الفرنسية التى كانت تحمل الذخائر والمدافع والأقوات للجيش الفرنسي ، واســـتولوا عليها وقتلوا من فيها من الفرنسيين .

وقاوم الفرنسيين « ابو شعير » الذى كان يقطن قلعة عشما مركز شبين الكوم . والذى قاومه الجنرال (لانوس) مقاومة عنيفة لم تتوقف إلا بعد قتله شهيد بطولة يوم ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ وقد اعتبر الجنرال لانوس موته نصراً باهراً واعترف فى رسائله إلى نابليون بالخسائر التى يكبدها للفرنسيين .

وجاء عربى من حلب هو « سليمان الحلبى » ليقتل كليبر فى القاهرة ويؤخر زحف الفرنسيين إلى الشام وينتقم للعرب فى كل مكان .

وبلغ نابليون عكا ولكنه فشل فى اقتحامها . كانت مقاومة حسن طوبار فى البحر الصغير قد أتاحت الفرصة لأحمد باشا الجزار لتحصين عكا .

وانهزم الفرنسيون حول أسوار عكا الصامدة الباسلة التى قاومت ثلاث شهور كاملة .

وكان ارتدادهم أول هزيمة منى بها جيش نابليون كان نهاية حلم نابليون فى الاستيلاء على أرض العرب فانسحب عنها .

وقاومنا بريطانيا . .

ومضى الفرنسيون وجاء الإنجليز . وكانت حملة فريزر على رشيد . وقاومت رشيد بقوة ، قاومت بأرواح الشعب قبل أن تصل قوات الجيش .

ودبر الأهالى خطة رائعة فقد تراجعوا عند مداخل المدينة ، واعتصموا بالمنازل وتقدم الإنجليز الذين لم يجدوا أية مقاومة فى أول الأمر فظنوا أن حاميتها قد عمدت إلى إخلائها تمهيداً لتسليمها .

وما ان دخلوا شوارع المدينة وتفرقوا فيها واستوعبتهم حتى صدر الأمر بإطلاق النار ، فتلقاهم الرصاص من كل صوب ، من النوافذ وسطوح المنازل والشرفات ، فإذا بهم بين وابل منهمر من النار تجتاحهم من كل مكان ، فسقط منهم عدد كبير صرعى واستولى الذعر على من بقى فلاذ بالفرار .

وكان السيد حسين كريت نقيب الأشراف فى رشيد الذى كان القائد الفعلى للمعركة فقد جند أهل البلد ومن وصل إليه من القرى المجاورة وسلحهم بالبنادق والسيوف والخناجر . . .

وهاجم الفرنسيون الجــزائر ، وتصدى لهم أهلها العرب البواسل .. وقادهم عبد القادر الجزائرى خمسة عشر عاماً .. دون توقف ، حرب دائمة ومقاومة مستمرة ، أنشأ معامل الأسلحة وصب المدافع وصنع البارود ، وحاصرته الجنود الفرنسية مرة ومرة ، يقاومها فى صلابة ، ويكبدها الخسائر ويهزمها ، ثم تعود مرة أخرى لتجد مقاومة أشد من هؤلاء .

وقد عرف بحيوية جارفة على مصابرة الموت بل تحديه ، وقد عرف بالصلابة فى الحق ، والجرأة المحمودة ، والتمرس بالعيش الخشن ، واعتلاء صهوات الجياد .

وقد استطاع الجزائريون الحصول مقابل كل جندى جزائرى على خمسة عشر فارساً فرنسياً مع عتادهم .

وتآمرت بريطانيا فاشترت اسهم قناة السويس . ولتعد نفسها للدور الذى طمعت فى أن تقوم به منذ سنوات طويلة ، وهو احتلال مصر وجاء رجل عملاق إلى مصر ، كان يحمل دعوة التحرر من الاستعمار ، يملأه الامل فى أن يتاح لأرض العرب تحقيق رسالته فى سحق بريطانيا .

ذلك هو جمال الدين الأفغانى .

وأوقد جمال فى النفس العربية لهيباً ، كان هذا اللهيب مقدمة لثورات عاصفة مدمرة . . ، فقد ثار عرابى الجندى الفلاح ، ولأول مرة . .

ووقف فى ميدان عابدين ومن حوله الجيش ومن وراءه الشعب ليقول للخديو بوصفه الحاكم الظالم المستبد .

« لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثاً ولا عقاراً ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لانورث بعد اليوم » .

وهزمت عرابى الخيانة بعد أن انتصر على الانجليز فى كفر الدوار . ونفى عرابى ، وعندما وقف عرابى فى وجه الانجليز ، كانت الأمة كلها وراءه لقد هزمته الخيانة وحدها . .

ولما علم أهالى باب الشعرية والحسينية بدخول الانجليز إلى القاهرة . خرجوا يحملون الهراوات والسكاكين . فلما قال لهم محافظ القاهرة : لافائدة . لقد سلمت الدولة .

قال الأهالى : سلمت الدولة ولكن الشعب لم يسلم .

•

وفى نفس الوقت ثار «المهدى» فى السودان على الاستعمار التركى والاستعمار البريطانى، ووقف فى وجه بريطانيا وهى فى أوج قوتها .

وقتل المجاهدون « غردون » ممثل بريطانيا ، وغضب لذلك المهدى وقال أنه كان يود أن يفتدى عرابى بغوردون .

٢ — وقاومنا فرنسا وايطاليا

واستمر الغزو البريطانى والفرنسى والايطالى لأرض العرب. وفى فتح القرن العشرين استولى على الجزائر ومراكش وتونس واستولت إيطاليا على ليبيا ، وكانت بريطانيا تحتل مصر والسودان

ومضت الشخصية العربية تجاهد وتكافح وتقدم شهداتها ، ودماتها وضحاياها فى حرب مقدسة تحشد لها زهرات الشباب .

والاستعمار ماض فى أساليبه الغادرة ، مدافع تحمل الحمم ، ومشانق تنصب، ورصاص يوجه إلى صدر والأحرار ومجاهدون يحملون فى الطائرات ثم يلقون من الجو ، ومؤامرات تدبر لاغتيال الأحرار . ودول تتآمر ، وتتفق فى سبيل تمزيق أوصال أرضنا حتى لاتتعارض مصالحها ، فتطلق بريطانيا يد فرنسا فى مراكش فى نظير أن تطلق فرنسا يد بريطانيا فى مصر .

ومعارك ينهزم فيها العرب بفعل الخيانة وشراء الأعوان والخداع ومع هذا فالشخصية العربية صامدة لا تستسلم .

وفى الجناح الآخر من أرض العرب تدور معركة أخرى ، فى الحجاز وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق . . تدور معركة رهيبة ، العثمانيون يضغطون على العرب ليذوبوا فى كيان الطورانية. وعبد الحميد الطاغية الذى يعيش فى «يلدز» يحكم البلاد بالجواسيس ويحجب الدستور عن الشعب أربعين عاما ، ويرصد حركات الوطنيين ، ويقاوم جمال الدين الأفغانى، وعبدالله نديم، وعبدالرحمن الكواكبي واللغة العربية يعلمها للعرب شيخ تركى من الأناضول ووزارة العدلية التركية تطلب من المحاكم أن تكون المرافعة باللغة التركية ، والبرقيات والرسائل والقوانين لابد أن تكون بلغة جنكيزخان .

وأحس العرب أن قيداً جديداً من الظلم والاستبداد يوشك أن يطبق على أعناقهم ، هنالك برزت الحركة العربية إلى الميدان ممثلة فى الجمعيات السرية .

وتداعى العرب فى كل مكان إلى الحرية، التى تصحح أوضاعهم إلى الذود عن الشخصية العربية بكل ما يملكون

ووقفت تركيا إزاء هذا التيار الضخم تقاوم مقاومة المستميت فبعثت بأكبر مستبديها ، أحمد جمال الدين السفاح إلى سورية ،

حاكما وسفاحا ، وقد حاول فى أول الأمر أن يتحبب إلى العرب مخادعا ففشل ، فلم يلبث أن اتجه إلى العنف والارهاب .

وواجه العرب المعركة فى إيمان صادق ، وقدموا ضحاياهم وشهداءهم وأبطالهم الذين كانوا يتعانقون على حافة المقصلة .

وقدمت الشخصية العربية شهداءها: محمد المحمصانى وعبد الكريم خليل ، وعمر أحمد وتوفيق البساط وغيرهم من المجاهدين ، قدموا أرواحهم فداء لعروبتهم .

وخدع الاستعمار العرب على أن يؤيدوه فى الحرب العالمية الأولى على أن يحقق لهم وطنهم العربى الكبير ، ثم خدعهم فقد قامت الثورة العربية الكبرى ، واندفعت الجيوش العربية تحرر الوطن العربى من الاستعمار التركى فاذا بها تجد نفسها آخر الأمر طعمة سائغة للحلفاء ، وإذا بها تتمزق بين فرنسا وبريطانيا واليهود وكشف الاستعمار عن حقده البالغ يوم دخل اللورد اللنبى مدينة القدس ، القدس التى احتلها قوات الصليبين قبل ثمانمائة عام ، ثم هزمهم صلاح الدين وبيبرس . وقف يربط الماضى بالحاضر ويعلن سراً حربياً خطيراً هو الامتداد بين الصليبيين والاستعمار حين قال : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

وقامت الشخصية العربية فى كل مكان. وقامت فى سوريا بأعنف صور المقاومة وقدمت شهداءها .

خرج يوسف العظمة مع مجاهدى سورية إلى ميسلون يقاومون القوات الفرنسية وهى فى طريقها لاحتلال دمشق، لقد صمم القائد الشهيد على الا يرى وطنه يقتحمه الأعداء .

حمل مدفعه ومضى يلقى الحماس فى قلوب المتطوعين والجنود النظاميين للدفاع عن الوطن المقدس .. وبينما كان يجالد العدو الدخيل أصابته رصاصة فى ذراعه ، وحاولوا أن يضمدوا جراحه فأبى وقال إننى إنما أتيت إلى هنا لأموت تحت سنابك الخيل وما زال يجالد ويحارب ويشجع جماعته على الصبر والثبات، والقيام بالواجب إلى أن أصيب بعدة طلقات أردته صريعاً إلى الأرض ، . فتوارى فى بطن الثرى .

وجاهد شكرى القوتلى . كان الديدبان اليقظ الذى يؤجج المقاومة ويجمع المال من كل مكان . ويهرب الأسلحة إلى ثوار سوريا ، ويرفض توقيع الصكوك التى تغل الوطن ، لايغريه وعد ولا يرهبه وعيد .

وتوالت المعارك والثورات فى دمشق والقاهرة وبغداد والقدس والرباط .

« وابراهيم هنانو » . . مضى يقاتل الفرنسيين ويجمع حوله الجموع ، حتى بلغ جيشه ثلاثون ألفاً من الضباط والجند المدربين على النظام العسكرى ، ودامت ثورته عشرين شهراً ، ولما تغلبت عليه الجيوش الفرنسية سافر إلى عمان ثم إلى القدس حيث قبض عليه الانجليز وقدموه للمحاكمة فى مدينة حلب إنه هو الذى صارح الوطنيين فى سوريا بأن الحلفاء متآمرون على سورية والوطن العربى . وإن على العرب أن يفتشوا عن طريق آخر ، ومضى يجمع حوله فصائل المجاهدين الثائرين يدك معاقل الجيش الفرنسى الغاصب .

•

و « عمر المختار » يجاهد الايطاليين ويحاربهم ، خاض أكثر من مائة معركة ، ظل يحارب الايطاليين ، وهو مربوط على ظهر جواده بالحبال ، صمد للمقاومة وحده ، ظل يثير القلق فى نفوس الايطاليين ، ويحرض ويعد ويكافح ويقاتل ، ولم يتراجع أمام القوات التى جردت لمحاربته ، بل واجهها ، وسجل انتصارات باهرة عليها ، واستطاع بسلاحه البدائى أن ينتصر على الآلات الحربية الحديثة . .

ولما قتل فرسه من تحته ، وقبض عليه قال كلمته الخالدة للذين أرعزوا اليه اليه بأن يطلب العفو من جلاديه .

قال لهم : لو أنكم أطلقتم سراحي لعدت إلى محاربتكم من جديد .

لقد جاهدت ليبيا أشرف جهاد ، وضحت فى سبيل استقلالها وكرامتها بنحو نصف سكانها وصمدت للعدو ثلث قرن .

•

وفى السودان وقف « على عبد اللطيف » ، وهو الفرد الأعزل يدعو إلى تحرير الوطن فالتف حوله الكثيرون الذين ألفوا معه جمعية اللواء الأبيض التى أزعجت الانجليز ، وأصبحت شوكة فى ظهر الاستعمار ، وقد استطاع مع اخوانه المجاهدين أن يحصل على ثمانمائة ألف توقيع من زعماء القبائل ورجال العشائر مطالبين بخروج الانجليز من ديارهم وقد أفشى سر هذه الرسائل قبل وصولها إلى الباخرة التى كانت ستحملها إلى مصر ، والتى القبض على الرسول وهب الشعب ينفس عن مشاعره فى أول صيحة فى سبيل الحرية ويواجه بصدوره رصاص الانجليز .

وفى «دنشواى» ، ينصب الانجليز المشانق ، قبل التحقيق والمحاكمة، ويقدمون اليها إثنين وخمسين وطنياً لم تكن لهم جريرة فى موت ضابط بريطانى بضربة الشمس . كانت الدائرة محاطة بالجنود البريطانية شاهرين سيوفهم، يشنقون واحداً من الوطنيين ويتركونه معلقاً أمام أهله ليجلدوا آخر .

•

وفى دمشق ، كانت المدافع الفرنسية تفتح نيرانها على المدينة الباسلة ، لتصب الحمم على قلب المدينة ، فتأكل النيران الدور ، ويقع النهب والسلب وتحرق البيوت والحوانيت ، ويساق الشباب إلى المجازر يرمون بالرصاص .

ويقف سلطان الأطرش ليقود كتائب الجهاد ويبدى من ضروب الشجاعةو الاستبسال ما يكتب باسمه فى سجل الخلود إلى جوار عبد القادر والعظمة .

•

وفى «تطوان» ، يمضى عبـــد الكريم الخطابى ليحارب الفرنسيين والاسبانيين معاً، حرباً شاملة مدى أربع سنوات كاملة

دون توقف ، كان يواجه جيوشاً قوامها مائة ألف جندي ، كاملة العدة والعتاد فينتصر ويمضى من نصر إلى نصر . . وفى معركة (أنوال) يصل إلى قمة الظفر فقد سحق الفرنسيين فتركهم صرعى تتقاطر جثثهم خمسة أميال كاملة . . واستولى على عشرين ألف بندقية ، ومائتى مدفع ، وبضعة ملايين من الطلقات . .

وزلزل عبد الكريم قواعد الاستعمار وأذاقه الوبال فى الوقت الذى لم يكن جنوده يزيدون عن خمسة آلاف .

•

ولقد اندلعت ثورة الريف فى المغرب وثورة الشام فى دمشق فى وقت واحد ، وساقت فرنسا الجيوش إلى ساحتى القتال ، واستعانت فى المغرب بأسبانيا للتغلب على عبد الكريم واستعانت ببريطانيا لتضيق الخناق على العرب فى سورية .

•

و« عزيز على المصرى » الذى اشترك فى الثورة السنوسية على الإيطاليين فكان على رأس قوات الثوار وبطل برقه ومن أوائل العاملين على دفع العرب إلى التحرر من نير الترك . وقد أسس

(جمعية العهد السرية) التى تعد أكبر حزب عسكرى ألفه ضباط العرب فى الجيش العثمانى .

و« رشيد الكيلانى » العربى الذى واجه بريطانيا قوياً مهيباً ، عرف بالعناد والصلابة فى مقاومة نفوذ الانجليز فى العراق ، وأحبط كل أحابيل الاستعمار وخداعهم ، وأعلن سياسة الحياد بين المعسكرين لأول مرة .. ومنع دعايات الحلفاء فى العراق ..

وصلاح الصباغ قائد الثورة العراقية فى سبيل الأمة العربية الموحدة ، وتحريرها من الاستعمار . وعدو الإنجليز الذين حاربهم وتعقبهم ، حارب الإنجليز فى صفوف الجيش التركى خلال الحرب العالمية الاولى ، وحارب الفرنسيين فى ميسلون دفاعاً عن دمشق ثم حارب الإنجليز مرة ثالثة على رأس فرقة من الجيش العراقى عندما هاجموا بغداد خلال الحرب العالمية الثانية . .

وظفر به الإنجليز أخيراً وقتلوه وعلقوه على باب وزارة الدفاع العراقية .

•

وعبد العزيز جاويش الرجل الذى قال أن الإنجليز لا تاريخ لهم يستحق القراءة ولا أفكار تستحق الدراسة . ولافلسفة تستحق

البحث . اللهم إلا مذهب دارون وسبنسر . والأول لا قيمة للإنسان عنده ، والثانى لا قيمة عنده إلا الأشياء المادية .

•

وعبد الحميد « بن باريس » الذى أحيا اللغة العربية وحفظها من الاستعمار الفرنسى ونفض عن العقل العربى فى المغرب أوزاره وحارب الأساليب التى يستعين بها الاستعمار ومن استغلال البدع والضلالات واحيا العروبة التى كان يهدف الاستعمار إلى محقها .

•

« ومحمد فريد » الذى رفض أن يعود من منفاه فى مقابل كلمة يقولها،وفى غيبوبة مرضه وانات الألم العميق قال لرسول بريطانيا إنه يستحيل أن يساوم فى سبيل حرية وطنه .

•

والشيخ العدوى الذى كان واحداً من مجلس الحرب لمعاونة عرابى فى مقاومة الانجليز ، فلما لعبت الخيانة دورها واخمدت الثورة،وفتحت السجون أبوابها، لتتسع لأكثر من تسعه وثلاثين

ألف مواطن ، كانوا يؤيدون عرابى ، أخذت المحاكم العسكرية فى محاكمتهم فلما جاء دور الشيخ حسين العدوى وشرعت المحكمة فى سؤاله عن توقيعه القرار الذى صدر بإبقاء أحمد عرابى فى وظيفته وتوقيف أوامر الخديو والموافقة على عزله ، قال فى قوة : نعم ختمت على هذا القرار .

قال القاضى : هل ختمت برغبتك ورضاك أم لسبب آخر ؟

قال : كان ختمى برغبتى ورضائى .

قال القاضى : علم المجلس أنك أفتيت بعزل الجناب الخديوى فهل هذا حقيق أم لا .

قال : أريد أولا أولا أن أسمع هذه الفتوى .

فقرأها رئيس المحكمة وهذا نصها ·

« ما القول فى حاكم نقض العهد وأحدث الفتنة وشق العصا وانتهى به الأمر إلى أن اختار القوة الأجنبية . وبذل عناية فى المدافعة عنها . ولما دعاه الوطنيون للرجوع عن ذى أبى وامتنع وأصر على المروق من الشريعة ، فهل يجوز شرعاً أن يبقى هذا الحاكم حاكما أو يتعين عزله » .

وقال الشيخ العدرى : إن هذه الفتوى لم تصدر منى ، ولكن ادفعوها إلى وجيئونى بمنشور أقوى منها ، وأنا أوقعه أمامكم الآن مافى وسعكم وانتم رجال العدل أن تنكروا إن الشيخ توفيق مستحق للعزل لأنه مارق عن الدين والوطن » .

•

« ووقف صلاح العلى » أمام المحكمة الفرنسية فى دمشق ، لمحاكمته بعد اعتقالة فقال : اننى مغرم بوطنى . محب لعروبتى . ولو بقى معى عشرة من الرجال لقاومتكم حتى الرمق الأخير .

وكان صلاح العلى قد روع الفرنسيين بهجماته المتوالية فى بطولة وفدائية على مراكزهم وارغمهم على التقهقر والتراجع إلى الساحل تاركين ورائهم مئات القتلى والجرحى .

وسيطر البطل على جبل العلويين سيطرة تامة وأصبح زمام المبادأة فى يده فانطلق على رأس قواته يهاجم مراكز احتشاد القوات الفرنسية على ساحل طرطوس ونشبت معركة لم يعرف لها مثيل فى ضراوتها .

وعندما هاجم البريطانيون الاسكندرية عام ١٨٨٢ كانت هناك بطولات عربية مجهولة ، لايعرف التاريخ أسماءها ، تقف لتدافع عن الوطن ، أولئك هم الرماة الذين أبلوا بلاءاً حسناً ونادراً خلف مدافعهم عندما بدأت البوارج البريطانية تضرب الميناء فقد وقفوا فى شهامة وقوة وإيمان ، لايبالون بالقنابل ، ويدافعون عن آخر مافى أيديهم من دفاع،وقد وصفهم المؤرخون بأنهم كانوا يؤدون واجبهم فى العراء دون أن يخشوا الموت الذى يهددهم فى كل لحظة ، ولم يكن معهم ، تروس ولا متاريس، وكان الرجال والنساء ينقلون الذخائر تحت نيران المدافع ويقدمونها إلى الطوبجية الذين كانوا يطاقونها ..

ولقد أذاق العرب الاستعمار الويلات ، حطموا قواه ، وأرغموه على التراجع فقد بقيت جيوش فرنسا عاجزة تسعة أشهر عن اجتياز جسر صغير يقوم على أحد أنهر دمشق المعروف بنهر « تورا » ويبلغ عرضه أربعة أمتار ، وقد كلف عبور هذا الجسر الجيوش الفرنسية أكثر من عشرة آلاف قتيل وجريح إذا كان رصاص المجاهدين من بين الوف الأشجار يصرعهم كلما دنوا منه شبرا أو حاولوا اجتيازه .

٣ — وقاوم العرب فى فلسطين

« وكانت فلسطين » بداية اليقظة للشخصية العربية مرة أخرى كما كانت يوم هجوم الصليبيين وقيام الدولة اللاتينية ، فان الغدر البريطانى قد مكن فيها للصهيونية هذه المرة ليجعلها قاعدة للعدوان والانتقاض على العرب .

وانهزم العرب بفعل التآمر والغدر والدسيسة،انهزموا بالخيانة وقدمت الشخصية العربية ضحاياها مرة أخرى .

وقاومت فلسطين الاستعمار البريطانى واليهودى . . بعد إعلان تصريح بلفور . وقاد المعركة الشهيد موسى كاظم الحسينى ، كان أول صوت ارتفع عقب الانتداب . وخرج على رأس أول مظاهرة شعبية فى فلسطين عام ١٩١٨ وتولى قيادة الحركة الوطنية أربعة عشر عاماً وقتله الانجليز بالرصاص فى شوارع القدس وهو يقود مظاهرة ضخمة وكان فى الثمانين من العمر .. وعبد القادر الحسينى الذى حمل روحه على كفه وقاد فصائل المجاهدين فى جبل الجليل

ضد اليهود ، وقاوم الانجليز . وذهب إلى العراق ، ليقاوم احتلالهم له ، فأخر دخولهم عشرة أيام ، ودرب المجاهدين للتسرب إلى فلسطين وألف جيش الجهاد المقدس . ونظم فرقه واستشهد فى القسطل .

وأحمد عبدالعزيز الذى هاجم دير البلح وغزة وكفار عصيون ورامات راحيل ، والذى حطم وسحق والتى الألغام ، ولم يكترث بالرصاص والقنابل المتطايرة ، والذى خاض الحرب ضد اليهود تاركا وظيفته مختاراً مستهيناً بالغد وما يأتى به .

وأحمدجابرالذى جاء من صفد يجاهد فى كتيبةضخمة حتى نفذت ذخيرته فأسره الجند وحكم عليه بالسجن عشرين عاما فلما خرج بعد مضى نصف المدة ، ظنوا أنه سيعود إلى بيته ، ولكنه عاد إلى ساحة الجهاد حتى سقط شهيداً .

وفوزى القاوقجى الذى حارب الفرنسيين فى دمشق ، والذى قدم من العراق إلى فلسطين على رأس نحو مائة مجاهد من الفدائيين ليحارب اليهود والانجليز .

والشيخ عز الدين القسام الذى قدم من اللاذقية إلى القدس

يدفع الناس إلى الجهاد فى فلسطين حتى أخذتهم النشوة فباعوا متاعهم واشتروا بثمنه سلاحاً وذخيرة وألفوا أول كتيبة فدائية فى فلسطين قادها بالرغم من بلوغه سن الخامسة والستين حيث هاجموا معسكرات اليهود .

وفرحان السعدى الذى أعدم فى سجن عكا مع مائة وثمان وأربعين شهيداً، وسنه ثمانين عاما، وقد شنقه الانجليز وهو صائم.

لقد واجهت بريطانيا ثورة عارمة هزت الدنيا ، وأحس اليهوديان أمالهم فى البقاء فى فلسطين قد تبخرت ، وقد بلغ الذين حكم عليهم بالسجن فى هذه الثورة أكثر من ألفين . كما نسفوا أكثر من خمسة آلاف بيت ، وبلغ عدد من اعتقل لمدد مختلفة نحو خمسين ألفا وقد كانت القوات البريطانية تحاصر قرية من القرى فتجمع رجالها فى العراء ثم ينتقى الضابط البريطانى الشباب القوى ، ويطلق عليه النار على مشهد من سكان القرية العزل حتى جاوز عدد الشهداء ثلاثة آلاف والجرحى سبعة آلاف . .

ولكن هل انهزمت الشخصية العربية فى فلسطين بقوة السلاح كلا ، بل انهزمت بالخيانة . لقد أرسل ملوك العرب إلى المحاربين فى فلسطين يطلبون إليهم أن يضعوا السلاح ، كانت خدعة أطلق عليها التفاهم.

وقاومنا فى العراق ...

أما الشخصية العربية فى العراق فقد قاومت بريطانيا وهزتها هزا ، عندما اندلعت النار عام ١٩٢٠ اضطرت بريطانيا أن ترسل ٧٠ ألف جندى بريطانى لاخمادها، كانت بغداد والبصرة والموصل والديوانية والسليمانية والناصرية تقاوم فى عنف وظلت تقاوم مقاومة شديدة عشرة أعوام كاملة ، وفرضت بريطانيا على العراق معاهدتها بالقوة ، ولم تستطع القضاء على المقاومة إلا بالإرهاب والنفى كان سلاح الطيران البريطانى ينزل من الصواعق ماوصفه أرنولد ولسون يقول « لقد كان التصويب المحكم الذى قام به سلاح الجو الملكى فى قذف السكان الأكراد خلال العشر سنوات الماضية . إن القرى المهدمة والماشية المذبوحة والنساء المشوهات ، والأطفال المشوهين دليل لايدحض على طراز فريد من المدنية ، بل أنهم عمدوا إلى استعمال نوع جديد من القنابل ، هى القنابل الموقوفة ، هذه القنابل التى لاتنفجر عند سقوطها مباشرة وإنما تنفجر بعد وقت محدود ، وقد قصدوا من ذلك أن يغرروا بالقرويين فيعودون إلى أكواخهم بعد انصراف الطائرات فتنفجر فيهم القنابل عندئذ » .

وقد ظلت بريطانيا تقذف العراق بالقنابل حتى ثورة رشيد الكيلانى عام ١٩٤٢ ولكن الشخصية العربية فى العراق عاشت قوية حية مليئة بالحماس والايمان بحقها فى الحيـــاة وكيانها القوى .

وقد ظلت العراق مصدراً من مصادر القـــوة لكل ثورة فى سوريا وفلسطين ، وكانت مصدر إمداد الثورات الفلسطينية بالسلاح والعتاد ، وكان جيشها فى معركة فلسطين ١٩٤٨ يتحرق إلى أداء دوره لولا الاستعمار .

وإذا كان العراق قدمت الضحايا فان سوريا قدمت نصف مليون من الضحايا وهو مايعادل سبع عدد سكانها فى الثورة العربية الكبرى .

لقد أوقدت الشخصية العربية الثورة فى كل مكان على الاستعمار الذى قدم أبشع صور الظلم والقتل والابادة . وقاومت الشخصية العربية بالرغم من تمزيقها وتفريقها ، قاومت بالرغم من التجزئة والخونة ، فى كفاح باسل ، كانت كل حركة فى مصر ضد بريطانيا ، وفى سوريا ضـد فرنسا وفى ليبيا ضـد إيطاليا جزءاً من العمل الكبير .

لقد ثرنا على الانجليز والفرنسيين والأسبانيين والايطاليين وكل من استولى على بلادنا وعدنا فكررنا الثورات الحمراء والبيضاء عدة عقود من السنين وقاسينا فى ذلك ألواناً من العذاب والتضحيات .

وحاولت بريطانيا أن تقيم حكومات من الاقطاعيين والرجعيين والسماسرة ، وتخلق عروشاً واهية وزعماء خونة ولكن ذلك لم يمتد طويلا . فقد كان يوم اليقظة الكبرى يقترب بسرعة ، ولم يكن فى استطاعة هذه الأوضاع المفتعلة أن تستمر طويلا . لذلك فانها سرعان ما انهارت .

لقد صمدنا حقا فى وجه الموجة العاتية ، أن أى أمة لو تنازعتها الأحداث والفتوح والثورات على هذه الصورة ، غير أمة العرب ، لكانت نسيا منسيا ، ولكن الشخصية العربية بما لديها من صلابة العود صمدت وإستطاعت أن تقهر الفاتح وتقاومه .

لقد دمر الإستعمار كثيراً من قوتنا التى نبنيها على مر السنين دمر أسطولنا فى معركة نفارين ، وسحق جيشنا فى الاحتلال ، وخدعنا مرتين فى الحرب الأولى وكانت نتيجة معاونتنا له تمزيق وطننا وفى الحرب الثانية خلق إسرائيل .

ولكن يقظة الشخصية العرب وقفت ضد ما يحاك لها ، فأنهزم

الاستعمار فى أشد أيامه قوة ، عندما حاول أن يتم أمتياز قناة السويس قبل الحرب العالمية . ونادى الانجليز فى مصر والفرنسين فى سوريا زعماء يلتقون بهم فى منتصف الطريق ، ولكنهم رغم كل أغراء عجزوا عن أن يوقفوا التيار الوطنى الجارف الذى قتل بطرس غالى فى مصر لأنه وقع إتفاقية السودان ، ويكر صدق فى العراق لأنه عاون الاستعمار ، وغردون فى السودان .

●

وظلت شخصيتنا العربية مصقوله مشرقة بالرغم من الظلم ، هذا عبد القادر الجزائرى بعد أن نفى من وطنه وحيل بينه وبين الكفاح فى سبيل تحرير وطنه ، وأختار المقام فى سوريا ، وقامت فتنة ٩ يوليو ١٨٦٠ بعث إلى كل مغربى فى دمشق ، فوزعهم فى احياء المدينة لإنقاذ ما يستطيعون من المسيحيين فكانوا يهجمون كالأسود بقلوب لاتهاب الموت ، وأستولى على البيوت المجاورة وأقام فيها اللائذين به ومن حلهم قناصل الدول وكان ينفق عليهم فيما يحتاجون إليه .

●

وهكذا صقلت الأحداث الشخصية العربية طوال هذه السنوات التى أربت على القرنين من المقاومة ، لم توقفها المشانق المنصوبة فى دنشواى وبيروت ودمشق ، ولا المدافع التى تحمل الحمم التى وجهت

إلى صدور الأحرار فى الجزائر وتونس ومراكش وليبيا . . . ولا المؤامرات التى دبرت لاغتيال عمر المختار ومحمد كريم وعبد القادر الحسينى وصلاح الصباغ وعدنان المالكى .

لقد تآمر علينا الصليبيون والتتار، فساقوا جحافل وراء جحافل وتآمر علينا التتار وحرقوا وهدموا ، وتآمر علينا العثمانيون ، ثم تآمر علينا البريطانيون والفرنسيون وتآمرت إسرائيل .

وما من معركة أنهزمنا فيها إلا كانت الخيانة مصدرها ، هزمتنا الخيانة فى ميسلون والتل الكبير ومرج دابق وفلسطين .

وحاول الغاصب أغراءنا بالمرأة والمال والمنصب والجاه فلم يتخدع لها الاقلة داستها الأقدام فى الموكب الزاحف ، وحملوا فوق رؤسهم عار الأجيال .

انه الاستعمار الذى واجهنا بجحافله وحديده وناره ،وقد واجهناه بأجسادنا المتراصة حين عجزنا عن السلاح ، لقد حاول التخلص من كل حر ، تخلص من جمال الدين الأفغانى ، وعبد الرحمن الكواكبي، وعلى عبداللطيف،وطارد عبد القادر وعبد الكريم ورشيد الكيلانى ونفى عرابى وأمين الحسينى وأبعد شكرى القوتلى وفوزى القاوقجى .

وعاشت الشخصية العربية تقدم الشهداء والضحايا صفاً وراء صف ، فى سبيل استعادة حقها المسلوب ، والحفاظ على كيانها الحق


بوتاجاز التعاون
تحقق الراحة والسعادة
في كل منزل سعيد

هيئة قناة السويس

معمل الابحاث الهيدروليكية

لا تالو الادارة العربية المشرفة على قناة السويس جهدا فى العمل على رفع امكانيات المرفق للاحتفاظ به على المستوى الذى يسمح له بمسايرة تطور حركة بناء السفن فى العالم .

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف . انشات الهيئة معملا للابحاث الهيدروليكية بمدينة الاسماعيلية ، حيث مقرها الرئيسى ، لبحث ودراسة كل مايتعلق بشئون الملاحة فى القناة . ويجرى العمل حاليا على قدم وساق لتزويد المعمل بما يتطلبه من اجهزة ومعدات حتى يتيسر افتتاحه فى اقرب وقت ممكن .

ويجدر بالذكر انه قد اجريت بعض التجارب فعلا صباح يوم الثلاثاء ١٨ اكتوبر الماضى على عربتى الدليل لسحب السفن فبلغت سرعة احداهما خمسة امتار فى الثانية . وامكن التحكم فيها اما باليد او بجهاز الكترونى . وبلغت سرعة الاخرى ٥ر١ مترا فى الثانية وامكن التحكم فيها باليد فقط . وقد اقتضت هذه التجارب استعمال نماذج للسفن التى تعبر القناة مع كل من العربتين وسوف تؤدى التجارب التى اجريت لدراسة تاثير الامواج وقوة الدفع والمقاومة على ضفتى القناة الى تحديد السرعة القصوى التى يمكن السماح بها لعابرات القناة .

وحرصا على ان تاتى هذه التجارب بالنتيجة المرجوة بالسرعة والدقة المطلوبتين ، انشىء المعمل فى منطقة القناة نفسها لا فى مدينة جرينوبل بفرنسا كما كان الحال ايام الشركة المنحلة التى كانت تستنفذ الوقت والجهد والمال على تجارب فى مكان يبعد الاف الاميال عن موقع المرفق .

ويجب الا يغيب عن اذهاننا ان اقامة هذا المعمل سيفتح مجال العمل والرزق للايدى العربية الامينة من اهالى منطقة القناة فضلا عما ستؤديه من الخدمات للملاحة العالمية .